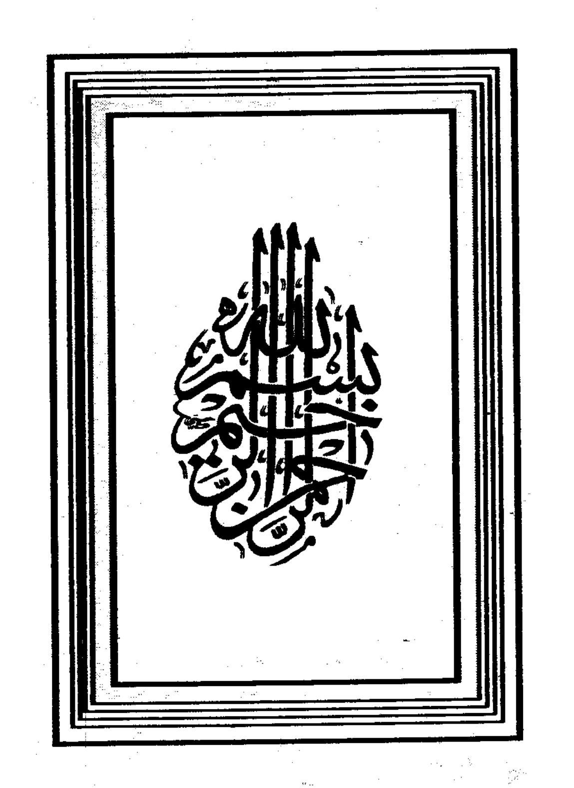
محمد بن ناصر العبودي

إطلالة على موريتانيا



الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

المؤلف

محمد بن ناصر العبودي: أحد الأدباء السعوديين الحائزين على (ميدالية) الاستحقاق في الأدب، ولد في مدينة بريدة عاصمة منطقة القصيم عام ١٩٣٠ م، وتعلم في مدارسها وتلقى العلم على مشايخها ثم على مشايخ آخرين في المملكة العربية السعودية.

شغل وظائف رئيسية منها مدير المعهد العلمي في بريدة من عام ١٣٧٣ هـ إلى عام ١٣٨٠ هـ، ثم نقل إلي وظيفة الأمين العام للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة عندما افتتحت وكان من الموظفين المؤسسين للجامعة. وذلك لمدة ثلاث عشرة سنة.

عين بعدها وكيلاً للجامعة الإسلامية لمدة سنة واحدة.

ثم نقل إلى وظيفة (الأمين العام للدعوة الإسلامية) برتبة وكيل وزارة (المرتبة الخامسة عشرة) وبقي فيها ثماني سنوات.

ثم (الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي) الحالية.

له بحوث عديدة واشترك في عشرات المؤتمرات الإسلامية والأدبية.

أولاً ـ مؤلفاته المطبوعة:

١ ـ «معجم بلاد القصيم»: ستة مجلدات، نشر دار اليمامة للطبع والنشر.

٢ ـ «الأمثال العامية في نجد»: خمسة مجلدات، ساعدت دارة الملك عبد العزيز في نفقات طباعته.

٣ ـ «في إفريقية الخضراء»، نشر دار الثقافة في بيروت.

٤ ـ «صلة الحديث عن إفريقية»، نشر دار العلوم في الرياض.

٥ ـ «كتاب الثقلاء»، نشر الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون (سلسلة الكتاب العربي السعودي).

٦ ـ «كتاب شهر في غرب إفريقية»، طبع المطابع الأهلية للأوفست في الرياض.

٧ ـ «كتاب رحلات في أمريكا الوسطى»، طبع المطابع الأهلية للأوفست في الرياض.

٨ ـ «كتاب جولة في جزائر البحر الزنجي»، طبع المطابع الأهلية للأوفست في الرياض.

٩ ـ «شهر إطلالة على نهاية العالم الجنوبي»، نشر النادي الأدبي في الرياض.

١٠ ـ «مأثورات شعبية»، وسلسلة الكتاب السعودي.

١١ ـ «سياحة في كشمير» طبع مطابع الفرزدق التجارية في الرياض.

١٢ ـ «رحلة إلى جزر مالديف» إحدى عجائب الدنيا. . . . نشر دار العلوم في الرياض.

١٣ ـ «رحلة إلى سيلان»، نشر الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون.

١٤ ـ «في غرب البرازيل»، طبع مطابع الفرزدق التجارية في الرياض.

١٥ ـ «في بلاد المسلمين المنسيين»، بخارى وما وراء النهر ـ طبع مطابع الفرزدق التجارية.

١٦ ـ «بقية الحديث عن إفريقية»، طبع مطابع الفرزدق التجارية.

١٧ ـ «جولة في جزائر البحر الكاريبي»، المطابع الأهلية للأوفست في الرياض.

١٨ ـ «جولة على جزائر جنوب المحيط الهادي»، مطابع الفرزدق التجارية.

١٩ ـ «جولة إلى أقصى الجنوب الأمريكي»، مطابع الفرزدق التجارية.

٢٠ ـ «مشاهدات في بلاد العنصريين»، نشر نادي القصيم الأدبي في بريدة.

٢١ ـ «نفحات من السكينة القرآنية»، نشر دار العلوم ـ الرياض.

٢٢ ـ «على ضفاف الأمازون»، نشر النادي الأدبي في أبها.

٢٣ ـ «سوانح أدبية»، طبع مطابع الفرزدق التجارية.

٢٤ ـ «أخبار أبي العيناء اليمامي»، نشر دار اليمامة للطبع والنشر بالرياض.

٢٥ ـ «داخل أسوار الصين»: مجلدان، طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٢٧ ـ «بلاد الداغستان»: مجلد، طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٢٨ ـ «جمهورية أذربيجان»، طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٢٩ ـ «مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين»، نشر النادي الأدبي في الرياض.

٣٠ ـ «بين الأرغواي والباراغواي»، طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٣١ ـ «صورة ثقيلة»، طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٣٢ ـ «في نيبال، بلاد الجبال»، طبع مطابع نجد.

٣٣ ـ «يزارة لسلطنة بروناي الإسلامية» مطابع الرياض الأهلية للأوفست.

٣٤ ـ «على قمم جبال الإنديز»، طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٣٥ ـ «في أعماق الصين الشعبية»، نشرته مجلة النهل التي تصدر في جدة.

٣٦ ـ «بورما: الخبر والعيان»، طبع في بيروت.

٣٧ ـ «مقال عن بلاد البنغال»، طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٣٨ ـ «ذكريات من يوغسلافيا»، طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٣٩ ـ «الرحلة الروسية»، طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٤٠ ـ «كنت في بلغاريا»، طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

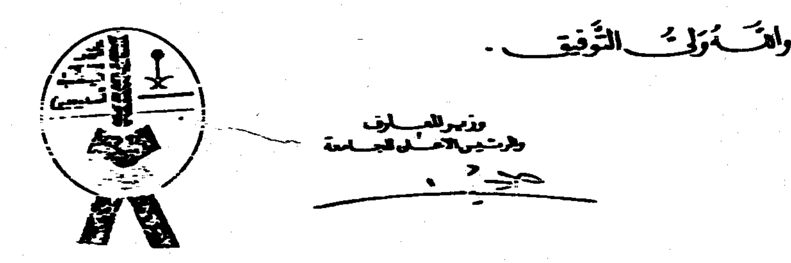
٤١ ـ «كنت في ألبانيا»، طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٤١ ـ «أيام في النيجر»، طبع في بيروت.

٤٢ ـ «نظرة في شرق أوروبا وحالة المسلمين بعد سقوط الشيوعية»، طبع في بيروت.

٤٣ ـ «ذكرياتي في إفريقية» ـ محاضرة ـ نشرتها رابطة العالم الإسلامي.





يسر وزير المعارف والرئيس الأعلى لجامعة الملك عبد العزيز - بناء على الصلاحيات المخولة له وبناء على المادة التاسعة والعشرين من نظام الجامعة وبعد الاطلاع على محضر مجلس الجامعة الثالث المنعقد بتاريخ ٥ / ٣ / ١٣٩٤ والمشتمل على توصيات اللجنة الفنية المنبثقة عن المؤتمر الأول للأدباء السعوديين لتكريم الأدباء.

أن يمنح السيد/ محمد بن ناصر العبودي ميدالية الاستحقاق تكريماً لجهوده وإنتاجه الفكري

والله ولي التوفيق.

صدرت بمكة المكرمة في ٥ / ٣ / ١٣٩٤هـ
الموافق ٢٨ / ٣ / ١٩٧٤م
مدير الجامعة
محمد عبده يماني

وزير المعارف
والرئيس الأعلى للجامعة

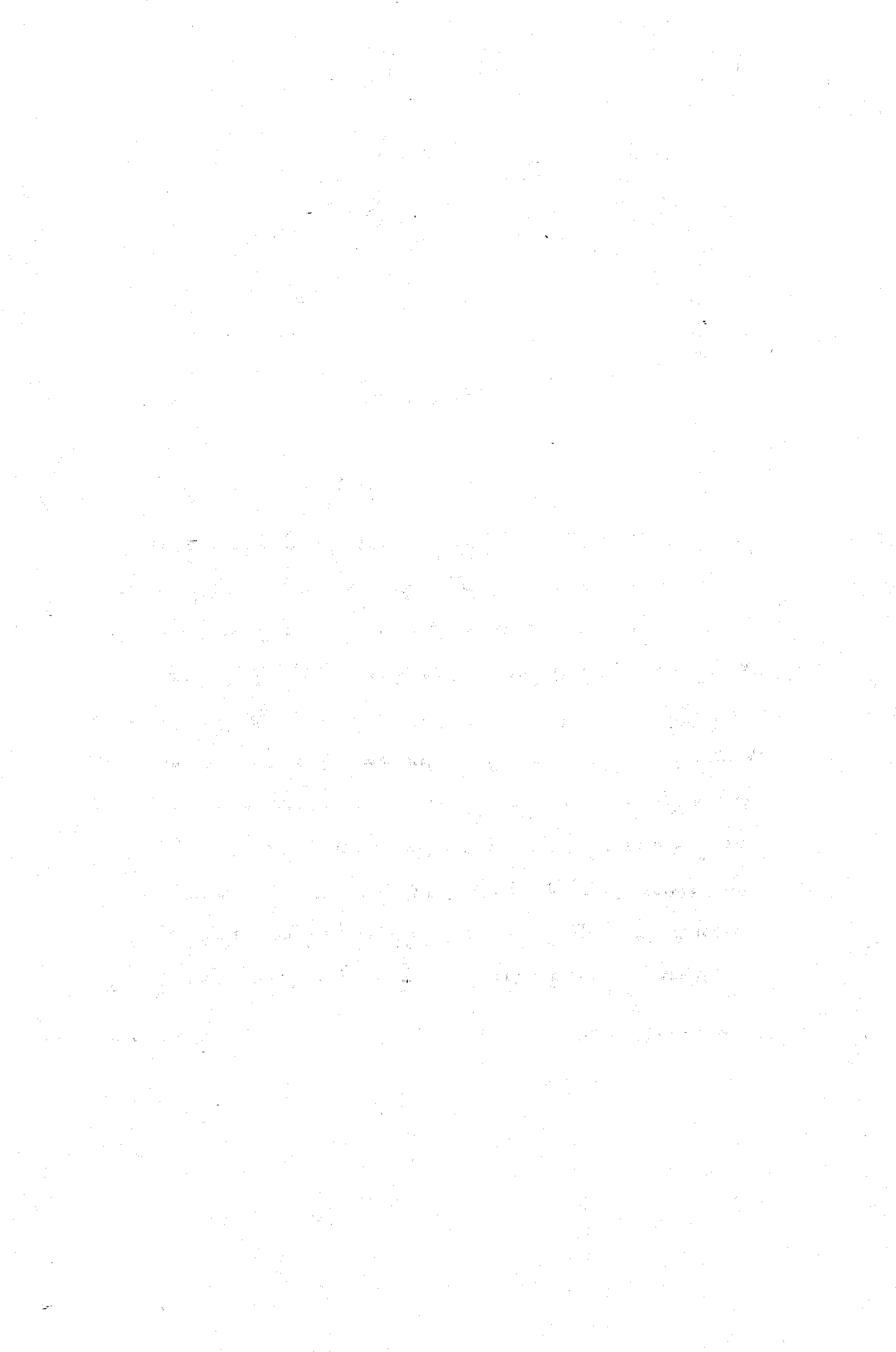


المقدمة

بسم الله، والحمد لله، وأما بعد:

فهذه الـمامة قصيرة بدولة موريتانيا لم تبلغ أن تكون زيارة لذلك أسميتها (إطلالة على موريتانيا)، واعتزمت أن أنتظر بها زيارة أخرى لموريتانيا لتصبح كتاباً يصح وصفه بأنه رحلة إلى تلك البلاد، ولكن الوقت طال عليها، وسؤال بعض الأخوة عما كتبته عن موريتانيا أسرع بها عن الانتظار، ومعرفتي بأن القراء الكرام أصبحوا يفضلون المختصرات من الكتب على المطولات، كل هذه الأسباب عجلت بها لترى النور، رغم كونها لم ترَ من نور (موريتانيا) إلا ما يراه المطل من نافذة محدودة السعة على قصر فسيح، إضافة إلى حسن ظن المؤلف بقرائه الذين أحسنوا الظن بكتب له أخرى فتلقوها بالقبول، لذا أحسن الظن بهذه الكلمات فقرر ألا ينتظر بها أن تطول، متمنياً أن تفوز بالرضا المأمول.

مكة المكرمة — محمد بن ناصر العبودي



تصدير

موريتانيا واسمها الرسمي (الجمهورية الإسلامية الموريتانية) جزء عزيز من البلدان العربية، يتوسط ما بين الصحراء، وإفريقية الخضراء، بل هو الصحراء والأرض الخضراء مجتمعتين، وهو البلد الوحيد الذي لا يشاركه غيره هذه الصفة إلا ما كان من السودان الشقيق فكلاهما يمتد من قلب الصحراء ذاهباً جهة الجنوب، في حين أن معظم البلدان العربية تمتد من شمال خط الاستوُاء ذاهبة جهة الشمال، فهي تعتبر كلها بلاداً شمالية، ما عدا الصومال وهو عربي بأصول أهله وتاريخ ثقافتهم بل عراقتهم في العروبة لولا ما شاب ذلك من استعمال لغة أو لهجة أخرى غير عربية فيه هي اللّغة الصومالية.

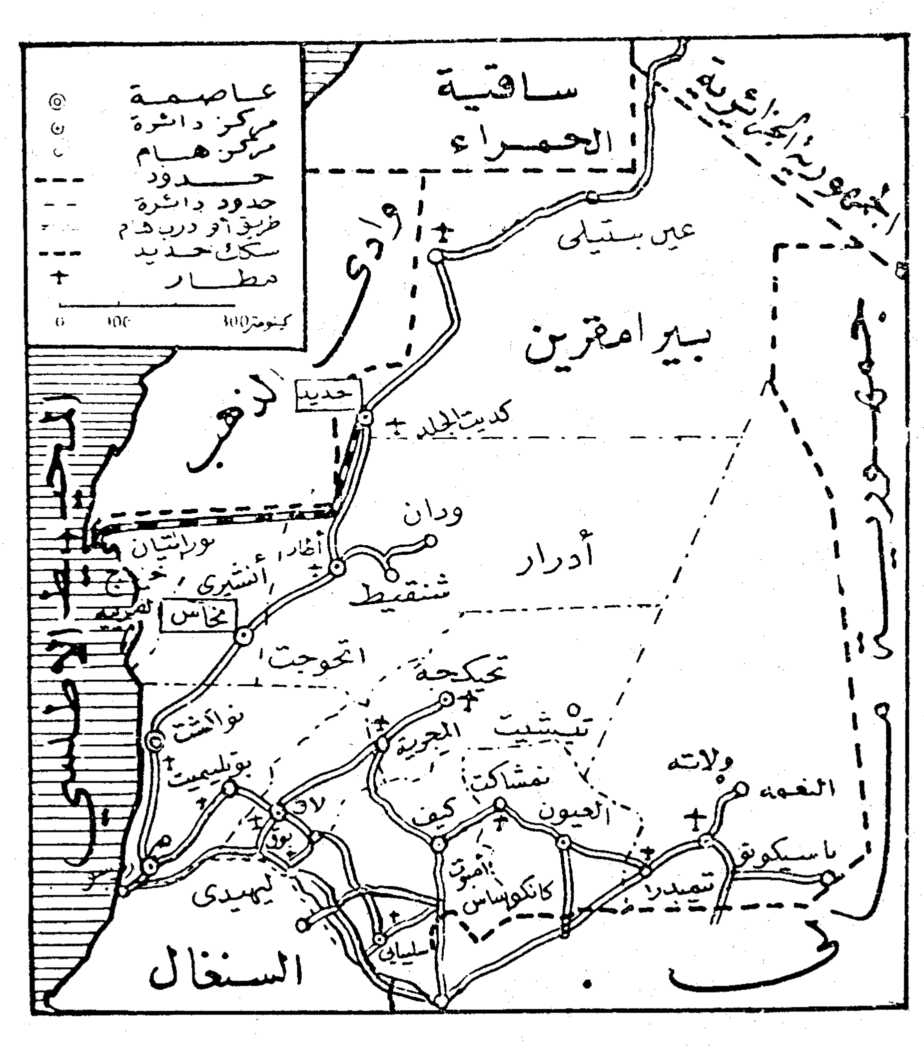
وموريتانيا تعتبر جسراً ثقافياً بما تدل عليه كلمة (ثقافة) من لغة ودين بين البلدان العربية، والبلدان التي تقع جنوباً من القارة الإفريقية. كان كذلك منذ العديد من القرون وقبل أن يعرف هذه الصفة القانونية الحالية، ولا تلك التسمية (الموريتانية) فكانت ـ بذلك ـ كهمزة الوصل التي تصل وان قطعت من اللفظ، وتعمل وان كانت الأحوال السياسية والمالية لا تساعد على العمل.

وكان رجال موريتانيا وعلماؤها بمثابة السفراء ـ على مر القرون ـ

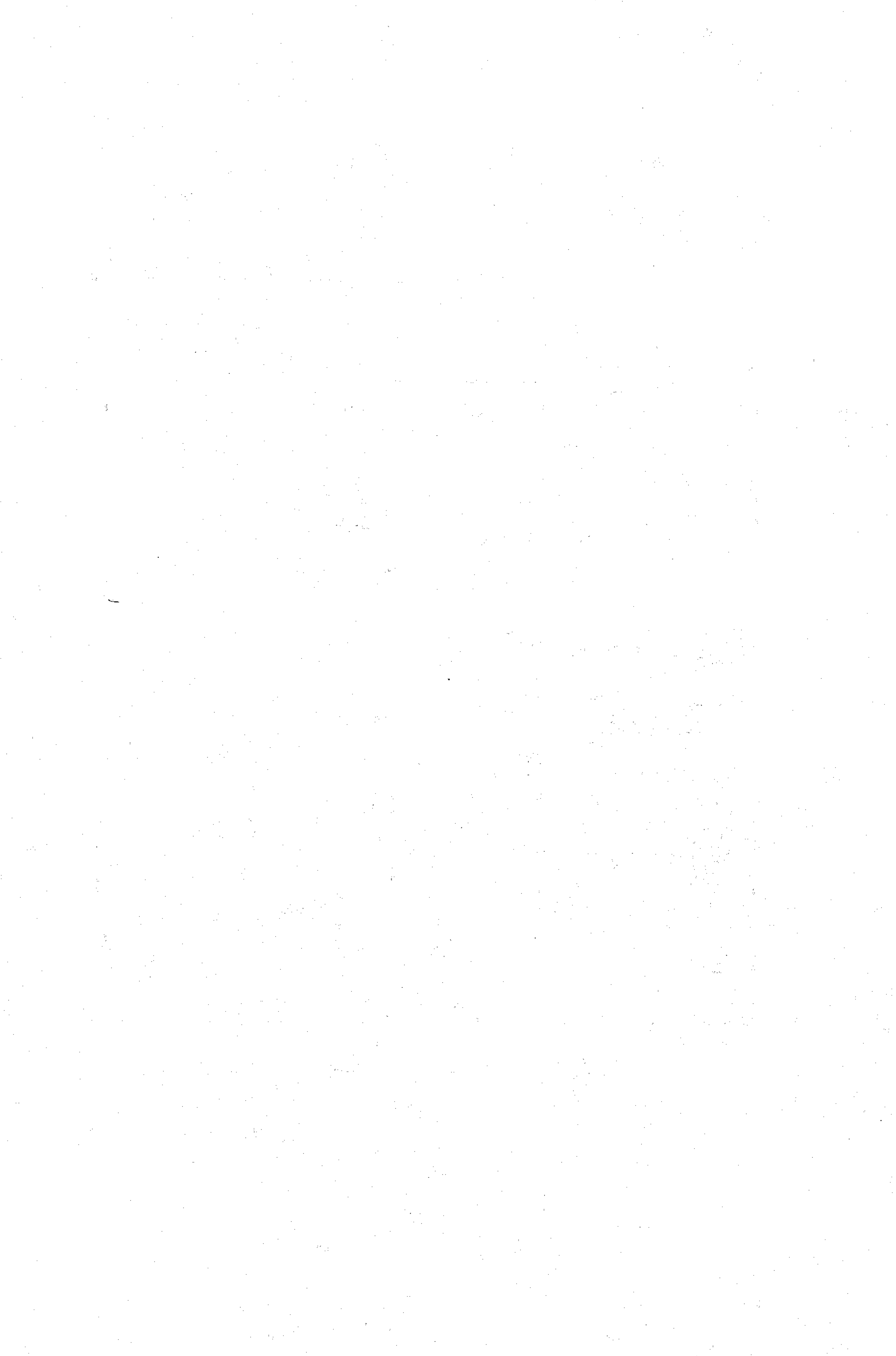
الذين يحملون العلم والنور والأخوة الثقافية إلى إخوانهم من الإفريقيين السمر، وإن جهل ذلك من جهله من إخوتهم العرب بسبب نأي الدار، وبعد المزار.

وحاضر موريتانيا ومستقبلها يؤمل أن يكون كماضيها أو أكثر إشراقاً من ماضيها. لذلك كانت الرحلة إلى موريتانيا هدفاً مطلوب التحقيق، ولكنه لم يتحقق إلا ضمن إطلالة من رحلة رسمناها في رابطة العالم الإسلامي وشملت تفقد مكاتب الرابطة في موريتانيا والسنغال والجابون والكنغو وزائير، على أن أقوم في موريتانيا بالاشتراك في مهمة أخرى هي تسليم المسجد الكبير الذي بنته المملكة العربية السعودية في نواكشوط العاصمة، وتقديمه إلى الشعب الموريتاني الشقيق ممثلاً في إدارة الأوقاف الموريتانية هدية المسلم إلى أخيه المسلم.

وقد سجلت في هذه الإطلالة ما تعلق بموريتانيا من أمر هذه الرحلة، وأما الكلام على الأقطار الأخرى فهو في كتب أخرى.



خريطة الجمهورية الإسلامية الموريتانية



موريتانيا

تسميتها:

كانت تعرف قبل الاستقلال ببلاد شنقيط، وكان أهل المشرق العربي يعرفون أهلها بأنهم الشناقطة ـ جمع شنقيطي المنسوب إلى شنقيط.

وشنقيط مدينة في موريتانيا تقع في المنطقة الشمالية الغربية منها واشتهرت لكونها واقعة على طريق القوافل المسافرة من المغرب ـ عبر الصحراء ـ إلى بلاد السودان الغربي وأهم حاضرة فيه كانت مدينة تنبكتو، إلى جانب كونها كانت مركزاً ثقافياً علمياً، بل منارة من منارات الثقافة العربية الإسلامية في المنطقة.

لذلك كان أهل موريتانيا ينسبون أنفسهم إليها وإن لم يكونوا من أهلها على اعتبار أنهم من المنطقة التي تقع فيها، ولكون بلادهم كانت صحراء قليلة المدن، والأماكن المأهولة فيها غير معروفة خارج المنطقة فكان الناس يسمونهم جميعاً الشناقطة ويسمون منطقتهم بلاد شنقيط. وتبعد مدينة شنقيط ٥٧٠ كيلو متراً عن العاصمة (نواكشوط) كما تبعد بمسافة ٨٠ كيلو متراً عن (إطار)، واسم (شنقيط) هو اسم

مدينة واحدة في الأصل وليس اسم منطقة واسعة، واشتقاقه من اللغة البربرية ويعني (آبار الخيل) أو (بئر الخيل) فأصله (شين قدو) وشين: فرس، وقدو: بئر أو آبار في تلك اللغة.

ومع أن مدينة (شنقيط) صارت مدينة مهمة منذ نشأتها التي تقول أقرب الأقوال إلى الصواب إنها كانت في القرن السابع الهجري فإنها لم يرد لها ذكر في كتب البلدانيات القديمة.

وقد تأخرت مدينة (شنقيط) في الوقت الحاضر بعد تقدم قديم، بل كادت تتلاشى وتبور، وحق لها أن لا يكون نصيبها البوار، بعد ذلك الذكر العطر السائر في الأمصار.

أما (موريتانيا) فإنها تسمية أوروبية أجنبية. قال بعض العلماء المؤرخين: إنها مؤلفة من كلمتي (مور) و (تانيا). فالمور هم سكان شمال إفريقية ومنهم المسلمون الذين فتحوا الأندلس. و (تانيا) معناه: الخيام - جمع خيمة - أصلها (تانت) أو (تان) أضيفت اليها (يا) كالموجودة في بريطانيا وإسبانيا.

وذكر بعضهم في تأصيل هذه التسمية أن موريتانيا تتألف من كلمة (موروس) في اللغة اليونانية بمعنى الأسمر أو السمر، و (تانيا) اللاتينية التي تدل على الأرض أو البلاد. ويكون معناها: بلاد السمر.

وأول من أطلق هذه التسمية رسمياً من الأوروبيين هو (كابولاني) أول حاكم فرنسي لبلاد شنقيط أي موريتانيا عندما كانت تعرف ببلاد شنقيط، ثم صار اسماً على سائر البلاد. ورأى بعض المؤرخين العرب أن أصل كلمة (موريتانيا) محرف من كلمة (مُرِّي)، بضم الميم وتشديد الراء وهي نسبة إلى إحدى القبائل العربية التي قيل إنها وجدت في فترة

من فترات التاريخ في شمال إفريقية، وإن السبب في ذلك أن فصائل من هذه القبيلة انتقلت في تحركاتها عبر الصحراء الكبرى إلى منطقة البلاد التي تسمى الآن (موريتانيا).

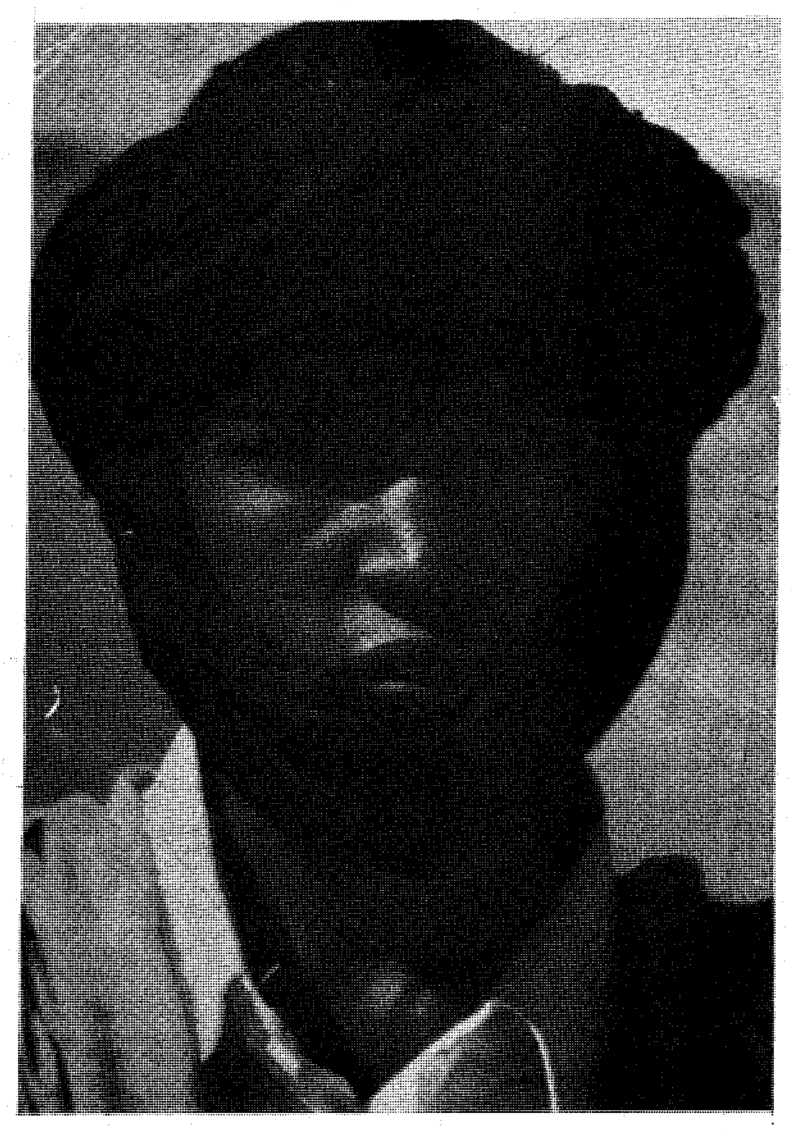
وعلى أية حال فإن التسمية بموريتانيا هي تسمية أعجمية أو لنقل أجنبية الأصل، ولا حرج في ذلك لأنه (لا مشاحة في الاصطلاح) كما يقول الأصوليون. وإن كان من المستحب استبدال الاسم الأجنبي باسم وطني غير أن ذلك تحول دونه عقبات منها أن جمهورية موريتانيا تضم الآن طوائف من الإخوة المسلمين أكثريتهم من العرب البيض بالنسبة إلى سواد الإفريقيين أو هم السمر بالنسبة إلى بياض الأوروبيين، وفيهم قلة من ذوي الأصول البربرية، أو لنقل الصنهاجية التي ترجع إلى أصول عربية عريقة.

وفي موريتانيا نسبة من السكان ترجع إلي أصول إفريقية سمراء أو لنقل: خضراء ترجع إلى عدة عناصر من ذوات الأمجاد التاريخية القديمة مثل السيراقولي والفلاني.

وهؤلاء لا يرضيهم اسم واحد قد يستوحى من اسم جماعة معينة من السكان دون الجماعات الأخرى.

كما أن موريتانيا دولة شاسعة المساحة بالنسبة إلى عدد سكانها، ولو سميت باسم (شنقيط) على سبيل المثال لكان هذا الى مجافاته للحقيقة، فيه تفضيل بقعة صغيرة على مجموعة كبيرة.

مثلها في ذلك مثل السودان والنيجر اللذين لا يرضى أهل كل واحد منهما عن تسميته. ولكنهم لا يجدون بديلاً عنه تسمية يرضى بها الجميع.



شاب موريتاني ملثم من جنوب البلاد

استقلال موريتانيا:

لم يكن مصطلح (موريتانيا) لهذه الدولة الواسعة بحدودها الحالية خاضعاً في القديم لسلطة مركزية واحدة. وإنما كانت تحكمه إمارات ومشيخات وقبائل متعددة مثلها في ذلك مثل معظم الأقطار الصحراوية الشاسعة المساحة.

ولكن سكانها يجمع بينهم الدين الإسلامي الحنيف، وتجمع بينهم الوحدة الثقافية بل التاريخ الثقافي المشترك، والآمال والآلام المشتركة، فهم كانوا يؤلفون عبر التاريخ وحدة عريقة، وإن لم تكن دستورية مكتوبة، وقد استولى عليها الاستعمار الفرنسي ابتداء من عام ١٩٠٥ حتى تم له ذلك بحيث اعتبرت جزءاً من إفريقية الغربية المسماة بالفرنسية.

وفي عام ١٩٥٨ عندما قررت فرنسا إعطاء الحكم الذاتي لأقطار إفريقية الغربية كانت موريتانيا من بين الدول التي قبلت البقاء داخل المجموعة الفرنسية.

ثم أفضى هذا الحكم الذاتي إلى الاستقلال في عام ١٩٦٠ م حيث اعلن استقلال موريتانيا يوم ٢٨ نوفمبر من ذلك العام وسميت بالجمهورية الإسلامية الموريتانية.

وفي ٢٠ من أغسطس عام ١٩٦١ انتخب السيد المختار ولد داده أول رئيس لجمهورية موريتانيا.

السكـــان:

يبلغ عدد سكان موريتانيا قرابة مليوني نسمة وهذا عدد قليل

بالنسبة إلى مساحة البلاد الشاسعة التي تبلغ ١,١٦٩,٤٨٠ كيلو متر مربع. ويتبعثرون في هذه المساحة الواسعة ما عدا كثافة سكانية نسبية في منطقة تكاثر السود على ضفة نهر السنغال (نيل غانة) الشمالية وما قرب منها.

ونلاحظ أن نسبة الزيادة المطردة في عدد الموريتانيين السود هي أكثر من نسبة تزايد السكان البيض مما سيعدل بلا شك من النسبة المعروفة الآن التي تقول: إن عدد السكان البيض هو ٧٥٪ وعدد السود هو ٢٥٪، ذلك بأن الإخوة السود يتزوج الرجل الواحد منهم - في العادة - أكثر من زوجة واحدة ويكون له أولاد أكثر من أولاد الرجل الأبيض الذي يقتصر على زوجة واحدة في أكثر الأحيان، ولا يعدد الزوجات منهم إلا القليل.

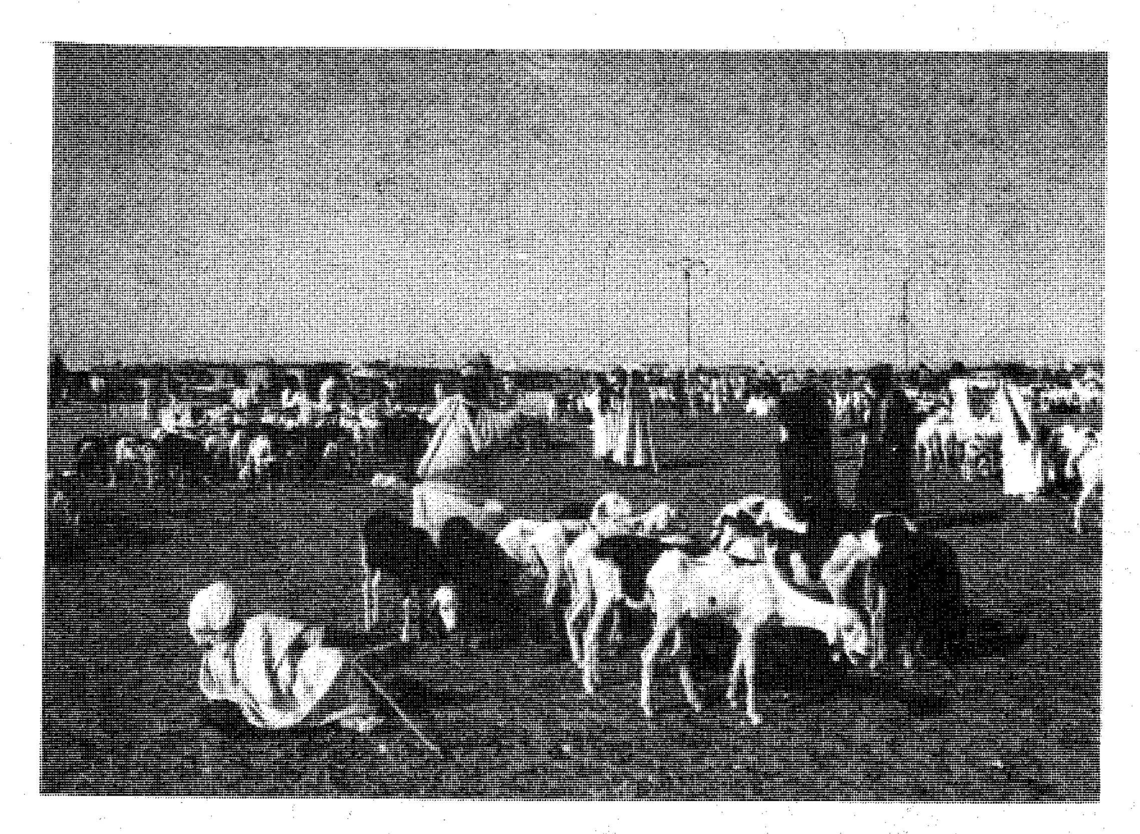
اقتصاد موريتانيا:

يقطن موريتانيا عدد قليل نسبياً من السكان كما سبق، وهي بلد واسعة ذات كنوز معدنية كشف عن بعضها ولم يكشف عن بعضها الآخر، كما أنها تتمتع بشواطىء بحرية طويلة خالية من التلوث تزخر بثروة سمكية طائلة، إلى جانب الثروة التقليدية في موريتانيا وهي تربية الماشية من الإبل والبقر والغنم.

إضافة إلى ما قد يوفره السدُّ الذي يجري العمل فيه الآن على نهر السنغال من قوة كهربائية رخيصة وما يحجزه من مياه صالحة للزراعة.

وهو سد مشترك المنفعة ما بين الجيران المسلمين الثلاثة: مالي والسنغال وموريتانيا.

ولذلك يمكن القول بأن مستقبل الاقتصاد في موريتانيا مستقبل



سوق الغنم في نواكشوط

مشرق، إذا أحسن استغلال ثروة البلاد، ووجد رأس المال المجدي، والمعونة الفنية الكافية.

فموريتانيا بمعادنها المعروفة التي تستخرج الآن مثل الحديد، وبمعادنها الأخرى المعروفة وغير المعروفة تعتبر قريبة من الأسواق المستوردة للمواد الأولية في القارة الأوروبية وغير بعيدة من تجارة أمريكا الشمالية. وذلك مثل:

١ ـ **الحديد**: تؤلف منطقة كدية الجلد شمال شرق ميناء نواذيبو

(بورانيان) سلسلة جبال من الحديد الخام، يقدر المعروف حتى الآن من احتياطها بما يزيد على ٢٥٥ مليون طن، ونسبة النقاوة بهذا الحديد بمعدل حوالي ٦٥٪، أي أنه يأتي في الدرجة الثانية بعد حديد السويد. وقد أعطت حكومة موريتانيا امتيازاً لشركة (ميفرما) لاستغلال معادن الحديد الخام، ورأس مال هذه الشركة يقدر بقرابة ١٩٠ مليون دولار أمريكي، وهي مكونة من عدة مصالح من بلدان دول السوق الأوروبية المشتركة.



ساحل الصيادين جنوب فندق الصباح في نواكشوط

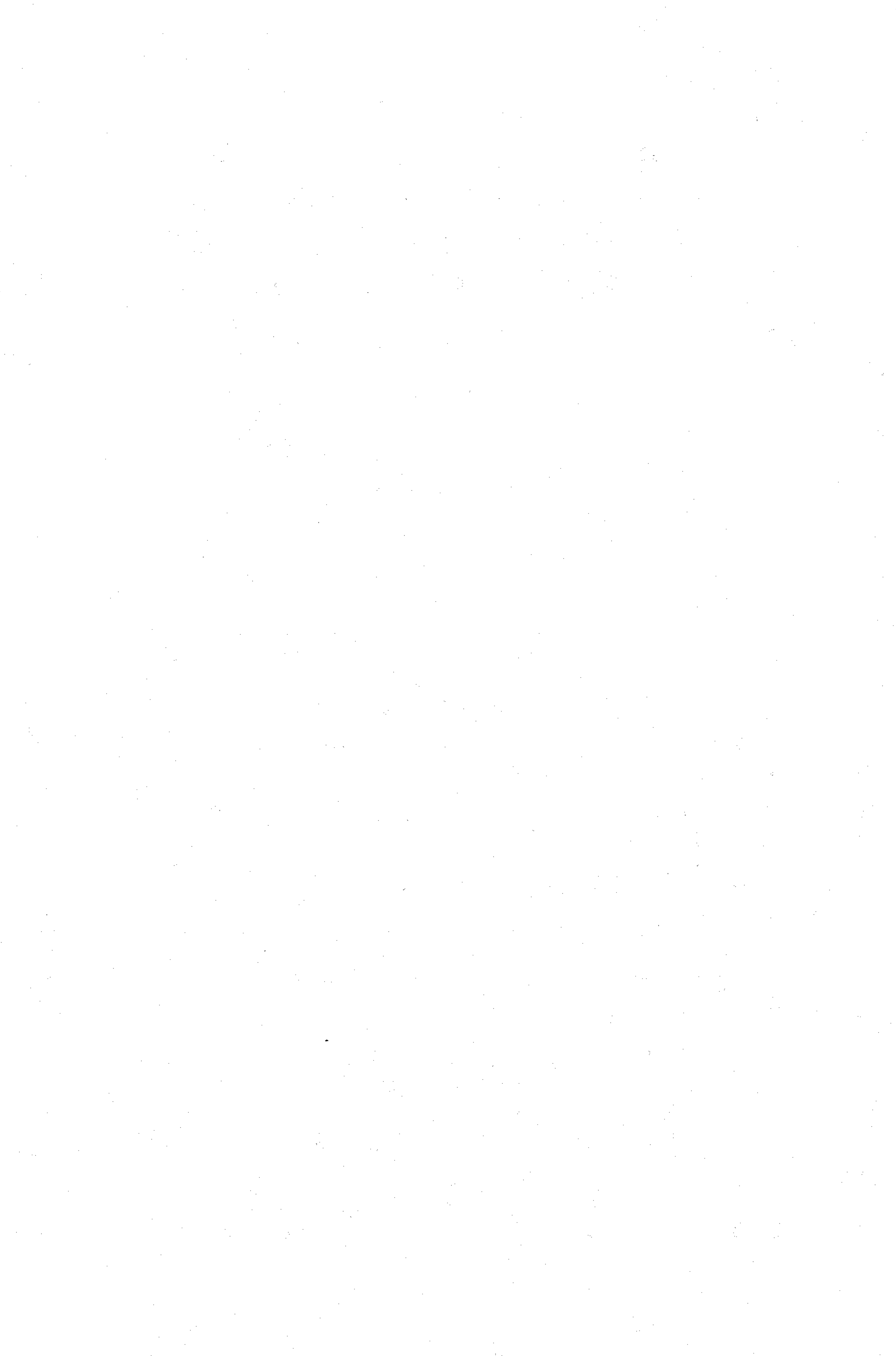
٢ ـ النحاس: منطقة قلب أم قرين التي تحتوي على منجم النحاس تقع على بعد ٢٩٠ كم شمال شرقي نواكشوط العاصمة. . . قدر ما اكتشف حتى الآن من المخزون من النحاس الخام بها ٥٠٠ ألف طن، وتحتوي هذه المناجم على معادن مكبرتة ومؤكسدة، كما أن من بين المحتويات حجر الدم والمنجنيز ورواسب الذهب، وتستغل هذه المناجم شركة (دميكيما) ذات رأس المال الفرنسي والكندي.

٣ ـ التنقيب عن البترول: دلت أعمال التنقيب القائمة على قدم وساق على احتمال وجود النفط، وتعمل أربع شركات في أعمال التنقيب منها اثنتان أمريكيتان.

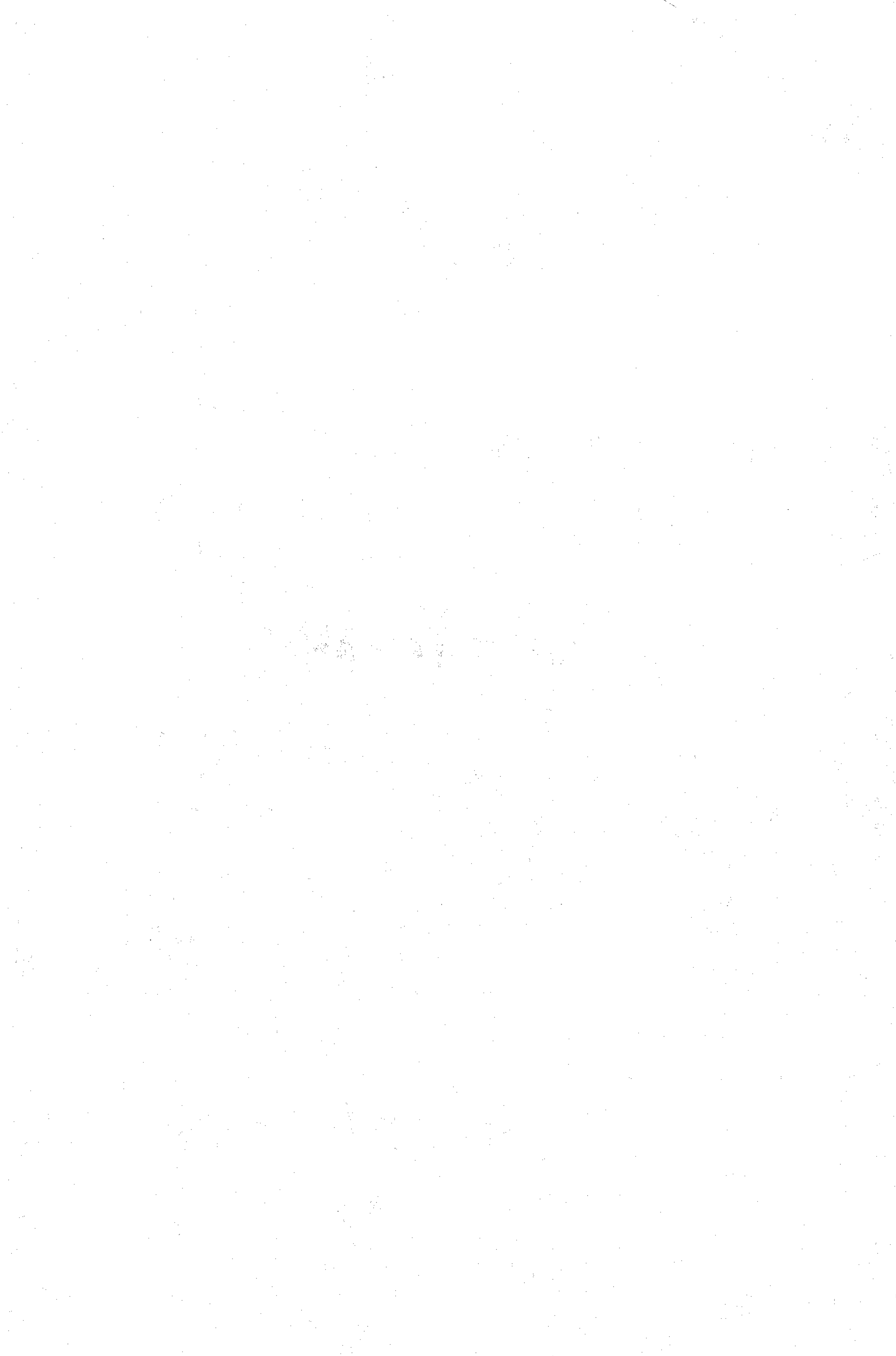
موقع موريتانيا:

تقع موريتانيا في غرب إفريقية يحدها من الغرب المحيط الأطلسي ومن الشمال الصحراء الغربية ومن الشمال الشرقي الجزائر ومن الشرق مالي. كما تحدها السنغال من جهة الجنوب حيث يفصل بينهما (نيل غَانه) الذي يسمى الآن (نهر السنغال).

وتمتد موريتانيا بين خطي عرض ١٥ ـ ٢٧,٥ شمال خط الاستواء، لهذا فالأمطار فيها قليلة رغم وقوعها على ساحل المحيط الأطلسي، والحرارة شديدة في الصيف، وتسقط الأمطار بصفة غير منتظمة، ففي الجنوب تهطل الأمطار صيفاً، حيث الأمطار الموسمية، وأما في الشمال فهي قليلة، وتسقط شتاءً، لذلك كانت المنطقة الجنوبية في الصحراء أكثر ازدهاراً من المنطقة الشمالية. وتغطيها مساحات شاسعة من الرمال، وتنتشر الأعشاب في أماكن متفرقة منها، حيث تربى الماشية، وأهمها الإبل والغنم.



الأيام الموريتانية



يوم الخميس ١٣/٢/١٤٠٤هـ:

من داكار إلى نواكشوط:

لم نجد طائرة تسافر إلى نواكشوط من داكار في هذا اليوم إلَّا في الخامسة مساءً وهذا معناه أنها تصل بعد المغرب إلى نواكشوط، وبذلك أفقد يوماً أنا أحتاجه في الاطلاع على المنطقة.

لذلك عزمنا على السفر بالسيارة من داكار إلى نواكشوط وتبلغ المسافة بينهما حوالي خمسائة وسبعين كيلو متراً مع خط مسفلت.

وقد كرم السفير السعودي النشيط النبيه عبد الله بن عبد الرحمن الطبيشي فأرسل بنا سيارته مع سائقه، وكنا قد اعتزمنا السفر بسيارة مكتب الرابطة في داكار لأننا في مهمة للرابطة.

مغادرة داكار:

نقدت فندق (نوفيتل) الذي أسكنه في داكار مائة وخمسة وثلاثين ألف فرنك إفريقي غربي ويساوي ذلك ألفاً ومائتين وخمسين ريالاً سعودياً أو حوالي أربعمائة وعشرين دولاراً أمريكياً أجرة ليلتين لجناح كانت السفارة قد حجزته لي، وهو جناح مؤلف من غرفة نوم وغرفة جلوس وغرفة أخرى بمثابة الاستقبال وفيها (مشرب) خاص عليه الكراسي العالية.

ولم يكن هذا عن رغبة مني، ولكنه إكرام السفير عبد الله الطبيشي زاده الله كرماً فأنا من عادتي ألا أنزل في مكان يكون فيه أكثر مما احتاجه، وتكفيني غرفة واحدة من هذه الثلاث أجرتها ربع أجرة الثلاث، وقد دفعت الأجرة للفندق وطلبت منهم ابلاغ السفير شكري واحترامي.

وتركنا الفندق مع شوارع (داكار) العاصمة الإفريقية التي يحق للإفريقيين أن يفخروا بها فهي نظيفة وجميلة ومرتبة، وهي آمنة إلى درجة لم تصل إليها المدن الأوروبية والأمريكية على وجه العموم في الوقت الحاضر، وهي إلى ذلك مدينة جميلة بأخلاق أهلها الرفيعة، ومعاملتهم المهذبة، وبعدهم عن التعصب ضد الذين يخالفونهم في اللون أو الجنس، كما أن ثقتهم بالإنسان كبيرة، لذلك لا يطلبون من النزيل أن يدفع الأجرة مقدماً كما يفعل أهل نيجيريا الذين لا يكتفون بذلك، وإنما يضيفون إليه أن يأخذوا منه مبلغاً مماثلاً لأجرة الغرفة مقدماً أيضاً يسمونه تأميناً، قال لي عدد منهم: انهم يأخذون ذلك بمثابة التعويض عما قد يتلفه النزيل من أثاث الفندق، وفي مقابل ما قد يتناوله من طعام أو شراب منه.

سليلة الأمجاد السودانية:

هذا ما يعرفه أكثر المترددين على داكار، هذه المدينة المسلمة الراقية، ولكنهم لا يعرفون أن شعب داكار أو أكثره هو سليل شعب السودان العظيم الذي لم يكن مؤرخو العرب القدماء يعرفونه بغير هذه التسمية (السودان) التي انتزعها الاستعمار منهم، حينما قسم بلادهم، ثم انتقلت منهم إلى شعب مسلم آخر هو الشعب العربي السوداني الذي

عاصمة بلاده الخرطوم، وأعطى تسميات أخرى محدثة لهذه البلاد السودانية العريقة بعد أن فرقها فمزقها إلى السنغال ومالي والنيجر، وألحق بعض أوصالها ببلاد أخرى مثل فولتا العليا ونيجيريا الشمالية.

ومن الإنصاف أن نقول: إن الإمبراطورية السودانية العظيمة كانت قد تمزقت قبل وصول المستعمرين، ولكن كان قد بقي من أجزائها ما يعد مفخرة في الأخذ بالنظام الإسلامي الكريم ومحاربة الجرائم والانحرافات فأجهز عليه الاستعمار وأحال ازدهاره إلى بوار.

والآن نحن نتحدث عن تلك الإمبراطورية أو (السلطنة) السودانية كما كان أسلافنا من المؤرخين العرب يسمونها لا لكون مدينة داكار كانت عاصمة لها، وإنما لنبين عراقة هذا الشعب السوداني العظيم في المدنية، وأصالته في الحضارة القديمة، وسابقته في الإسلام. ولكوننا سنمر في رحلتنا هذه الذاهبة إلى (نواكشوط) من فوق نهر السنغال الذي كان أسلافنا العرب يسمونه (نيل غانة)، ويقولون: إنه شقيق نيل السودان ويريدون بنيل السودان نهر السودان الذي أصبحت تسميته الأوروبية هي الشائعة حتى عند المثقفين من بني قومنا الذين لا يعرفون له اسماً غيرها وهي نهر النيجر.

غير أن أهل (غانة) القدماء كانوا من السودانيين الذين سموا بذلك لأنهم مسلمون كسائر المسلمين، ولكن السواد يغلب على ألوانهم فأسماهم مؤرخونا بذلك لا تعييراً بالسواد لأن السواد أو السمرة الشديدة كانت موجودة في العرب القدماء ولم تكن عيباً يذكر في التسميات، وإن نوه به في الصفات.

والعادة في حركة الهجرات أن تكون من بلاد الجدب إلى بلاد

الخصب فلا بد أن هؤلاء السنغاليين بأكثريتهم الساحقة هم من أهل (غانة) القديمة انزاحوا قليلاً جهة الجنوب طلباً للخصب وكثره الأمطار. لأن الجدب أو التصحر في أطراف الصحراء المسماة بالساحل الذي يراد به هنا ساحل الصحراء لا ساحل البحر كان كثير الحدوث إما بالتناوب بين السنين، وإما بالتتابع كما هو حادث الآن.

وعفواً عن هذا الاستطراد الذي جر إليه الحديث عن ماضي هذه البلاد، ولكنه ـ على أية حال ـ حديث غير معاد.

في الريف السنغالي:

لم تبزغ الشمس بعد ونحن نسير في ضاحية جديدة من مدينة داكار والسيارات موجودة بكثرة في شوارعها ويخاصة في الشارع الرئيسي الجيد الذي يبدأ من شبه جزيرة داكار، فهذا هو وضعها الجغرافي وينطلق بعد أن يفارق المدينة إلى عدة اتجاهات منها مالي وموريتانيا التي نقصدها ومنها غامبيا وغينيا التي يتيامن الطريق إليها بعد هنيهة.

مصنع الطائفة الدينية:

مر طريقنا بمصنع جيد للإسمنت، تندفع من مدخنته سحائب الدخان في هذا الوقت المبكر، والمصانع في البلاد المتخلفة في الإدارة تلفت النظر، ولكن الذي يلفت النظر أكثر في هذا المصنع أنه ليس مصنعاً للحكومة ولا لشركة من الشركات التجارية، ولكنه لطائفة دينية هي الطائفة التيجانية تستغله للإنفاق من ريعه على مشروعاتها الإسلامية.

والتيجانية في السنغال هي إحدى الطرق الصوفية في هذه البلاد بل هي أكبر الطرق الصوفية وهي منتشرة في كل البلدان الغربية الإفريقية، وأصلها من المغرب العربي وتليها في الأهمية وكثرة الأتباع في هذه البلاد طائفة (المريدية). وليس هذا الموضع موضع الكلام على الفرق أو الطوائف الصوفية بذكر ما لها وما عليها، وما فيها من بدعة وما ليس فيها منها.

المنافسة على المساجد:

ثم مررنا على يمين الطريق ويساره بقرية لصيادي السمك الذي يصطادونه من البحر اسمها (برني)، وقالوا إن أهلها يتنافسون على بناء المساجد وعمارتها فيقتطعون من أموالهم القليلة ما يعمرون به المساجد ويحاولون أن يجعلوها أحسن في المظهر من مثيلاتها في القرية ذاتها أو القرى الأخرى.

وبعد هذه القرية افترق الطريق الرئيسي الذي يخرج من الجزيرة التي فيها داكار فصار طريقين أحدهما وهو الأيمن يمتد إلى مالي وغامبيا وغينيا بعد أن يتشعب هناك، والثاني وهو الأيسر يذهب إلى موريتانيا.

وهذا الخط الذاهب إلى موريتانيا هو خط جيد التعبيد على جانبيه أشجار النيم الخضر الوارفة الظلال.

ويرى المرء في هذا الطريق الأشجار الضخمة التي تكاد تبدو في أكثر الأحيان عارية من الأوراق ومن دقيق الأغصان، قد ارتدت حلة مادية سكرية كأنها العمالقة التي انتصبت في هذا الريف، وهي

موجودة في كثير من البلدان التي تقع على شفير المناطق الاستوائية أو في المناطق الاستوائية التي لا تقع تحت خط الاستواء مباشرة وتسمى باللغة العربية الموريتانية التي يسمونها اللهجة الحسانية باسم (تيدوم) وهو اسم أخذته هذه العربية من شقيقتها البزبرية الموجودة في ساحل الصحراء الذي يحف بالأرض الجنوبية الخضراء. وهذه الشجرة رغم يبس عودها فإنه يتخذ من ورقها المرق، كما يتخد من ثمرها الدقيق، ومن أغصانها الليف والحبال.

والطيور الأكثر تعرضاً للنظر في هذا الصباح الإفريقي الغربي هي الغربان والعقبان التي بكرت بطلب حياتها في موت الآخرين. فالعقاب ـ بضم العين ـ هو العقاب ـ بكسر العين ـ العاجل للطيور الصغيرة، والحيوانات البرية الصغيرة أيضاً.

ثانية المدن:

ثم وصلنا مدينة (جيص) وهو ثانية المدن في السنغال بعد العاصمة (داكار) وتبعد عن العاصمة خمسة وسبعين كيلاً، وهي بلدة مهمة فيها قاعدة حربية فرنسية، وقد رأينا أفواج الطلاب الصغار والطالبات ذاهبين إلى مدارسهم في ملابس نظيفة، يغلب على أكثرها اللون الأخضر.

قرية لملم:

ذكرني اسمها باسم القرية التي هي ميقات حاج اليمن إلى مكة وهو (يلملم) في القديم وينطق باسمها في الوقت الحاضر (لملم) والإسم الأصلي ورد في الحديث الصحيح.

وصلنا إلى هذه القرية السنغالية مخترقين شارعها الرئيسي الواقع على هذا الخط الإسفلتي، فلفت نظري فيه (دكان) فيه امرأة عجوز والدكان هو عشة من القش، والبضاعة حوالي عشرين ثمرة من جوز الهند ثمار شجر النارجيل.

وأسرعت السيارة المريحة الجديدة من صنع (مرسيدس) الألماني بالابتعاد عن هذه القرية، كما أخذت القرية أيضاً تبتعد عن أنظارنا عندما التفت إليها، أستجلي منظرها، وأبحث عن حيوان يرى من الطريق فيها فلم أرَ من ذلك شيئاً.

مركز التيجانيين:

التيجانيون هم أتباع الفرقة الصوفية التيجانية التي سبقت الإشارة إليها ومركزهم في قرية وصلنا إليها اسمها (تيباون).

والمراد بمركزهم أن هذه الفرقة نشأت هنا أول ما نشأت وكان منطلقها من هذه القرية، فإن الفرقة موجودة الآن في كل أنحاء السنغال. وبخاصة في العاصمة، وهنا يقيم الخليفة العام للطائفة الشيخ (عبد العزيز سي) وابن أخيه المسمى باسمه (عبد العزيز سي)، ولكنه يميز بإضافة كلمة (الإبن) إلى اسمه. وإن كان لكل منهما بيت في العاصمة (داكار).

وقد اعترض الطريق قطار قادم مَن مالي فوقفت السيارة حتى مر وهو قطار شهير تمتد قضبانه مسافة ١٢٩٠ كيلو متراً منها حوالي سبعمائة كيلو متر في مالي.

وبهذا القطار عاد الماليون الذين كانوا في داكار يمثلون مالي مع

ممثلي السنغال في دولة (اتحاد مالي). التي كانت عند الاستقلال تضم مالي والسنغال في دولة واحدة كما كانت سلطنة مالي القديمة تضم مالي وغانة التاريخية وعدداً من الأقطار الخارجة عن (مالي) في الوقت الحاضر.

وكان أولئك الساسة (الماليون) ـ نسبة إلى مالي ـ قد أتوا إلى داكار من (باماكو) لحضور اجتماع للاتحاد. فقبض عليهم السنغاليون، واعادوهم معتقلين بهذا القطار إلى (باماكو) وانسحبوا من هذا الاتحاد، وبذلك استقلت (السنغال) عنه.

وبعد هذه القرية أوغلنا في ريف سنغالي جاف كان أظهر ما فيه نبات الفول السوداني الجاف الذي قد يبس من دون أن يثمر شيئاً حتى إن أكثره لم يحصده أهله بسبب نقص الأمطار، والقحط الذي أصاب البلاد.

وكان الأهالي قد اعتادوا زراعة الفول السوداني هذا الذي هو محصول رئيسي في البلاد كما اعتادوا زراعة أكثر المزروعات عندهم على مياه الأمطار حتى إذا تخلف المطر مات الزرع وتخلف الربح، وربما أصابت البلاد مجاعة وإذا لم تصبها مجاعة أصابتها خسارة زراعية فادحة، ولا أدري لم لا يعملون مشروعات صغيرة للزراعة على مياه الآبار إن وجدت أو على قنوات من مياه الأنهار إذا كانت قريبة، ويمكن أنهم سيفعلون ذلك في المستقبل إن تكرر عليهم الجفاف، وتوالت السنون العجاف، لأن الحاجة تفتق الحيلة كما تقول الحكمة الأصيلة.

فبلادهم بحالتها الحاضرة وحتى مع هذا الجفاف تعتبر أكثر

خصباً عشرات المرات من بلادنا الصحراوية في قلب الجزيرة العربية، ومع ذلك نحن نزرع زراعة جيدة ولو قليلة على مياه الآبار، ونستعين بالآلات القوية على استخراج الماء من الأعماق البعيدة، كما أخذنا نستعين بالآلات الزراعية الحديثة في الري التي تسقي الأرض بطريقة الرش فوفرنا بذلك مقادير كبيرة من المياه، وأدخلنا تحسينات على الغلات.

ولا شك في أن هناك فرقاً فيما بيننا وبينهم في هذا الموضوع، فنحن أكثر أموالاً وأقوى استطاعة على جلب الآلات والأدوات الزراعية، ولكنهم اذا جربوا الحاجة، فتكرر تخلف المطر فإنهم سيسعون إلى جلب هذه الآلات أو بعضها بدافع طلب الربح، ومكافحة القحط، ونسأل الله تعالى أن لا يحوجهم إلى ذلك، وأن يرسل السماء عليهم مدراراً، إنه كان غفاراً.

قرية كامي بير:

ثم اجتزنا قرية تسمى (كامي بير) وخيل إليّ أنها على حدود الصحراء، إذ رأيت فيها بعيرين وحمارين، وفي تربتها رمل أحمر يبدو من خلال بعض الأشجار اللاصقة بالأرض.

ولكن تبين أن الأمر ليس كذلك، واننا لا يزال يفصلنا عن الصحراء فاصل من أراضٍ فيها بعضَ الأشجار الخضر وفي تربتها بعض الرعي، وإن كانت مظاهر الجفاف، وشح الأمطار هي السائدة فيها ولذلك لا توجد فيها مزروعات خضر.

وقد تبين أن هذه المنطقة من مناطق تربية الأبقار لأنها لا تناسبها

الأراضي الاستوائية الكاملة التي هي أراضي الغابات وإنما تناسبها أراضي الأعشاب والمراعي التي تقع بين الأرض الاستوائية والأراضي الصحراوية، وقد رأينا فيها أبقاراً بيضاً كبيرة الأحجام.

النـــاس:

أما الناس في هذه المناطق كلها فهم السودانيون الغربيون كما كانوا يُسمون في كتب التاريخ العربي القديم، وهم يتميزون عن السودانيين الشرقيين الموجودين الآن في السودان العربي (بالعين المهملة) فهؤلاء عرب من العرب اسودت بشراتهم بسبب المناخ والأختلاط أكثر مع سكان كانوا في تلك المنطقة قبلهم.

ويصح أن نذكر هنا في حال هؤلاء الأخوة السنغاليين أنهم التكارنة، فهكذا أصبحت العامة في بلادنا تعرفهم وهي تسمية قديمة لأقوام كُثُر من تلك المناطق تمتد بلادهم من ساحل المحيط الأطلسي أو البحر المحيط الأعظم كما كان أسلافنا العرب يسمونه، ثم تذهب إلى الشرق حتى تصل بلاد الكانم والبرنو في شرق نيجيريا الشمالية أو في بلاد تشاد.

فهم سود ولكنهم ليسوا بالزنوج ولم يكن العرب الأقدمون يسمونهم بذلك، وإنما كانوا يقصرون اسم الزنوج على أقوام سود يقطنون ساحل إفريقية الشرقية في كينيا وتنزانيا وموزمبيق الى بلاد سفالة التي تضم جزءاً جنوبياً من سواحل موزمبيق وجزءاً من سواحل جمهورية جنوب إفريقيا التي يتحكم فيها العنصريون من البيض في الوقت الحاضر.

وحتى أولئك الأقوام الذين تقع بلادهم تحت خط الاستواء

خلف بلاد السودانيين في مالي والسنغال وغينيا ممن هم أشبه بالبانتو أو الزنوج في تسمية الأوروبيين لم يكن العرب القدماء يسمونهم زنوجاً وإنما كان يسمونهم في القديم الهمج الذين يأكلون لحوم بني آدم، وذلك قبل أن تزول همجيتهم بالعلم والمعرفة.

وذكر المؤرخون من العرب القدماء أن هؤلاء السودانيين الغربيين كانوا يسترقون أولئك الهمج ويبيعونهم للتجار الذين يأتون إلى بلادهم من بلاد المغرب العربي شمال الصحراء، كما كانوا يبيعون الذهب على التجار وهم يحصلون عليه أيضاً من بلاد أولئك الهمج الذين إذا غزا المسلمون السودانيون أرضهم اختفوا في الغابات هاربين منهم، ولعل السبب الرئيسي في هربهم خوفهم من الانتهاب والاسترقاق الذي يفرق بين الزوج وزوجته وبين الأم وولدها.

لقد قلنا في معرض الكلام على السودانيين الشرقيين الذين عاصمة بلادهم الخرطوم ونيلهم هو نيل السودان ومصر إنهم أقوام من العرب، وهذا يجرنا إلى التساؤل عن أصل هؤلاء السودانيين الغربيين.

ومع أن الكلام على أصول القبائل التي لا تدون تاريخها أمر صعب، بل بالغ الصعوبة فإنه يمكن القول قولاً مطلقاً مجملاً لا يفيد أصل قبيلة من القبائل بمفردها ولكنه يطلق على أكثرها إن هؤلاء القوم من السودانيين كانوا في الأصل من سكان الصحراء الإفريقية الكبرى عندما كانت خصبة مطيرة في عهود سالفة، وعندما أخذ التصحر بها، وقد بدأ بوسطها هاجروا إلى جهة الجنوب يبتغون الرعي ويبتغون الخصب حتى وصلوا إلى ما يسمى الآن بالساحل ساحل الصحراء الذي يمتد فيشمل جزءاً من بلاد السنغال ومالي وموريتانيا والنيجر

وتشاد فاسودت ألوانهم بسبب قربهم من خط الاستواء ذلك القرب النسبي الذي أخذ يزيد على مر السنين، واستمرار (التصحر) والجفاف في الصحراء الكبرى حتى أصبحوا على ما هم عليه الآن.

هذا قول مجمل مطلق تدل عليه الآن حالة الإخوة الموريتانيين من العرب والبربر، وحالة الإخوة من المسلمين الذين يقال لبعضهم الطوارق وبعضهم يقال لهم السوقيون وهم أو بعضهم من البربر كما يُعتقد، ولكن هؤلاء يسكنون إلى الشرق من مساكن الموريتانيين على حدود الصحراء الكبرى، أيضاً فإنهم في هذه السنوات الأخيرة التي زاد فيها الجفاف، وتوالت عليهم السنون العجاف قد ولوا وجهتهم صوب الجنوب يبحثون عن الرعي والخصب حتى تجاوزوا حدود بلادهم تجاوزاً سمح لهم به إخوتهم المسلمون حكام تلك البلاد المجاورة وشعوبها جرياً على السياسة العاقلة الحكيمة التي تسير عليها تلك البلاد المسلمة من التوسيع على شعوبها وسهولة التبادل بينهم، أما بعض القدماء من الموريتانيين من العرب والطوارق من القبائل الرحل التي نزحت إلى الجنوب منذ سنوات سحيقة فإن ألوانها قد اسودّت، ووجوه أهلها قد اربدَّتْ بسبب المكث الطويل في تلك البلاد التي تقرب من خط الاستواء، وتتكاثر فيها الأبخرة في أوقات الأمطار، والله أعلم بما يكون من أمرها، في عاقبة دهرها.

ولكننا نتخذ من حالتها مثالاً لما أردناه مقالاً ومثالاً في حالة هؤلاء الإخوة من المسلمين السودانيين الغربيين.

اللبـــاس:

حينما يذكر الناس يتبادر إلى الذهن السؤال عن اللباس فنجيب

بأنه اللباس الصحراوي الفضفاض الذي يسير المرءُ فيه وكأنما هو في خيمة، فهو بلا شك بقية من بقايا الحياة القديمة التي أملتها ظروف العيش في الصحراء أو في ساحل الصحراء كما يعبرون عن ذلك.

فهو لباس يقي الحر والبرد، ويتقي به المرء الريح السافية، والرمل الدقيق، ويكون فراشاً حينما يحتاج الصحراوي إلى النوم ولا يجد فراشاً، ويكون ملجأ لاختباء الوجه إلَّا العينين عندما يريد الصحراوي ومن يجاوره أن يخفي وجهه عن الأعين، (ولهم فيه مآرب أخرى).

وهناك أشياء غير اللباس تذكر المرءَ بأنه قد وصل إلى مشارف الصحراء أو ساحل الصحراء، ومنها مناظر ماعز رشيق وحمار أقمر أي لونه لون القمراء، فلا هو أبيض ولا هو أسمر، وأشجار من أشجار الطلح الكبيرة النضرة. وخيل من الهجن لا من العراب والهجن هي الخيل الرديئة التي لا تنفع في السباق عكس الأصائل من الخيل، ومزارع جافة من مزارع الفول السوداني التي قضى عليها تخلف الأمطار، وطيور من الحمام البري المسمى بالقماري ونسميه في عاميتنا الدارجة (القميري) ونصطاده وهم لا يفعلون به ذلك. وهو يقع على الطريق يلتمس ما قد يكون فيه من حب متخلف من أرواث الحيوان.

ثم رأينا قرية (قول) التي لا نبطىء في أن نقول: إن أهلها تكارنة وبخاصة إذا رأيت نساءَهم كنساء التكارنة في مكة المكرمة.

والسيارة تجد في السير وسائقها الأخ (عبد الله ناخبو) هو سنغالي قد سمّر عينيه على الطريق لأنه يسرع في سيره.

أما نحن رفيقي السفير عبد الوهاب الدكوري وأنا فإننا ننقل

أبصارنا ما بين الطريق والسيارة، إذ كنا نتناول إفطاراً عجيباً في هذه الأرض العجيبة فهو أقراص من (الكليجا) زودتني بها أم ناصر (زوجتي) لهذه السفرة ومثلها من الطواريء لأننا خرجنا من الفندق قبل موعد تقديم الإفطار وليس في الطريق مطاعم مناسبة.

و (الكليجا) هو أقراص من الكعك الجيد نصنعه خاصة في بلادنا (بريدة) ونجيد صنعه ويتزود منه الذين يزورونها، ومع (الكليجا) كان الفول السوداني الطبيخ الذي زودت به أم محمد زوجة الدكوري زوجها للطوارىء أيضاً، ومع ذلك كله زمزمية، على هيئة آنية كبيرة مليئة بالقهوة العربية أعدها لنا السفير الكريم عبد الله الطبيشي وزاد فيها من الهيل، وأخذنا نصب منها للنشامى لا على ظهور الخيل وإنما على ظهر هذه السيارة الألمانية الأصيلة.

وقد أخذنا نلمح بعض البيوت من الطين على ندرة في ذلك، وإنما أكثر المنازل من لبن الإسمنت وذات سقوف مسنمة من الصفيح، حتى وصلنا مدينة (لوقا) فبدت فيها بيوت اسمنتية صغيرة شعبية هي جزء من مشروع سكني يباع على المواطنين بالتقسيط.

ثم بدأ الرمل يطل من الأرض حيث قلت الأشجار نوعاً ما، وبدت الأعشاب اليابسة تقل أيضاً.

ألقت رحلها في رو:

وصلنا بلدة ريفية اسمها (رو) كان اسمها خفيفاً كما ترى ولكننا عانينا فيها ما عانينا. فقد وقفت السيارة فيها عندما توسطت شارعها العام الذي يمر به الطريق الإسفلتي ونزل السائق فسألناه عما بها فلم يجب وكان متجهم الوجه، فعرف الشيخ الدكوري السبب في ذلك وهو

أنه من المدخنين، ولكن الذين في السفارة أوعزوا إليه ألا يدخن بحضوري احتشاماً مني. فأذن له بالتدخين لأننا الآن خارج السيارة.

وعندما أكمل تدخينه انبسطت أساريره وقال: إن السيارة تعطل محركها ولا أدري السبب، وقد تجمهر عليه أُناس يريدون مساعدته وكلهم جاهل بهذه السيارة الجديدة المعقدة.

أما أنا فقد انصرفت إلى ظل شجرة كبيرة، وجاء صبي من أهل القرية يعرف كلمات من العربية، ولونه حالك السواد فسألناه عن اسمه فأجاب: (مودي فانتا باي)، ثم قرأ سورتي الإنشراح والإخلاص، ويعرف شيئاً من العربية تعلمه في المدرسة، ونفحناه شيئاً قليلاً من النقود. ويلاحظ أن (فانتا) معناها فاطمة فهذا الطفل اسمه على اسم أمه. وكان الجو معتدلاً لأنه الشتاء هنا، ولا يزال النهار فتى.

أعرابي السنغال:

وهذا الأعرابي خالص لأعرابيته ومن ثم لعروبته، وإن كان بعيد الدار والجوار.

جاء ماشياً على رجليه يحمل في يده كيساً فيه بعض الأشياء التي اشتراها من القرية، وتسحب أردانه الواسعة على الأرض أو تكاد ـ وذلك لفرط طولها، وهو الأعرابي بلونه الأسمر، وقامته المستقيمة، وبشرته التي تعاونت الشمس مع السنين الإفريقية على إصابتها بالتغضن، كان ماراً فاعترضته وسلمت عليه، وسأله الشيخ الدكوري: من أي قبيلة هو؟

فأجاب: من أولاد ناصر، وقال الشيخ الدكوري: إنهم عرب

أصلاء، فسألته أأنت عربي أصيل فكأنه استنكر السؤال ولكنه لم يرد عليه إلا بقوله: نعم، نعم، (إحنا) عرب.

فقلت له: ما اسمك؟

فقال بالحرف الواحد: وايش لك باسمي؟

فقلت في نفسي: هذا هو الأعرابي الأصيل الذي لا يريد أن يسأله الناس عن اسمه من دون مناسبة.

فسكت قليلاً، إلا أنه بادرنا قائلاً: من أين أنتم؟ ويش انتم جايين له هنا؟

فقلت له: لا نخبرك حتى تخبرنا باسمك، فقال: اسمي عبد الله، فقلت: ابن من؟ فتكلم بلغة عربية خالصة بلهجة (حسانية) صحيحة وقال:

أنا راعي بقر، عندنا مواشي لكن موريتانيا ما فيها رعي وجئنا للسنغال للرعي بمواشينا نرعاها ونبيع منها ونتعيش.

فقلت له: ألا تمنعكم حكومة السنغال من الدخول في أراضيها للرعي؟

فأجاب: لا، هم ناس طيبون لا يمنعوننا.

وقال: إنه بدوي يعيش مع جماعته في البادية ينتقل طلباً للرعي، وليس لهم مساكن من القرى ولا يقيمون في مكان بعينه.

ثم أنشده الشيخ الدكوري شعراً عامياً يتحدث عن بعض القبائل هناك.

فسألته: أأنت شاعر؟ فقال: هىء، أي: لا، ثم أضاف: أنا

أحفظ الشعر لكن (ما أني بداع) أي لست أبتدع القوافي وأنشىء الشعر من عندي، وسألته عن بيوتهم فقال: إنها خيام. فقلت له: لماذا تركتم بيوت الشعر؟ فأجاب: لأنها ثقيلة، ويزيد ثقلها إذا بللها المطر أو سفت عليها الرمال، أما هذه الخيام البيض فهي خفيفة.

وهنا قال له السفير الدكوري مداعباً: بيوتكم ما فيها ونس؟ فضحك الأعرابي الناصري، وقال: فيها، الله يحييكم، لكن ما هي هنا هي بعيدة.

فقلت له: ما المقصود بالونس؟ فضحك أيضاً وقال: ما فيه باس، كلام ولا فيه غير الكلام.

وهنا سأله الدكوري عن اسمه فقال: محمد ولد عبد الله. وتبين أنه قد ذكر لي غير الصحيح كما يفعل بعض الأعراب في بلادنا عند من لا يعرفونهم.

حيدرة، حيدرة:

مضى الأعرابي في سبيله وجاءت سيارة من الطريق فيها أسرة من رجل وزوجة وأطفاله سوادهم غير حالك وهم في حال جيدة من الملبس والمظهر فصاح الأطفال والرجال: حيدرة، حيدرة، ولم تتوقف السيارة ولكنني سألتهم عن ذلك فقالوا: إن أصحاب هذه السيارة هم من السادة من ذرية علي بن أبي طالب رضي الله عته ويسميهم الناس هنا (حيدرة) على اسم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. وهكذا تعني كلمة (حيدرة) معنى كلمة شريف: وأحد الأشراف في بلادنا.

بيت في القرية:

انتهزت فرصة انشغال القوم بالسيارة فذهبت أتمشى غير بعيد فرأيت بيتاً من بيوت القرية فيه غرف ثلاث يدخل من بعضها إلى بعض وهو من لبن الإسمنت وبسقف مسنم من الصاج، وله حوش تحت شجرة ظليلة لا تسقى، والحوش من الأعواد فيه بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين، وهي صغيرة الحجم تشبه الأبقار عندنا وليست كأبقار المراعي الضخمة، وفي الحوش ماعز صغير بلون الظباء العفر وهي البيض غير الخالصة أو ما يسميه العوام بالسكري ونحن في عاميتنا نسمي البعير إذا كان في مثل هذا اللون (أقمر) أخذاً من لون القمراء في الليل وتلك الماعز ليس عليها شعر.

هذا ولم يجد احتيال القوم في تحرك السيارة، بل لم يستطيعوا أن يحددوا الخراب فيها، والمشكلة كيفية تركها وهي جديدة في هذه القرية.

وجاء رجل شاب في سيارة صغيرة تشبه سيارتنا فوقف وحاول أن يصلح سيارتنا فلم يستطع، فقال: إنني أستطيع أن أحملكم بسيارتي إلى بلدة سان لويس.

ومن هناك تتصلون بالسفارة تخبرونها بالأمر، فتركنا السائق بعد أن نفحناه قليلاً من النقود ان احتاج إليها في أكل أو شرب.

اسم الرجل الشهم (أبو بكرصو) وهو من مالي مهندس يعمل في شركة هنا، وكان متجهاً إلى مقر الشركة لحضور اجتماع.

وصلنا إلى مستنقعات من نهر السنغال بعيدة من المجرى، وقد اختلطت ببعض مياه المد من البحر المحيط، وفيها طيور مائية بيض كثيرة إلا أنها صغيرة.

ووصلنا إلى بلدة (سان لويس) ومعناها: القديس لويس، وهذا اسم فرنسي لم يغيره السنغاليون بعد الاستقلال، بل إن الذين غيروا اسمها هم الفرنسيون إذْ كان اسمها القديم عربي الأصل فكان (داراً) أي: دار بمعنى مسكن فغيره الفرنسيون إلى (سان لوي) وبلغة الولوف (اندر). واستقبلتنا البلدة ببيوت شعبية من لبن الإسمنت بينها أكواخ قليلة من القش مخروطة الشكل وقد كثرت أشجار النيم في البلدة مما يعطي الانطباع بأن جوها شبه صحراوي حار لأن هذه الأشجار تزدهر في مثل ذلك الجو.

وتحت الأشجار نسوة من (التكرونيات) يبعن البطيخ الأخضر (الجح أو الحبحب) وبعض القرع الصغير.

ثم وصلنا إلى منطقة فيها أبنية حكومية جيدة من المسلح.

وهذه البلدة واقعة على نهر السنغال الذي يفصل بين موريتانيا وجمهورية السنغال، ولكننا لن نمر إلى موريتانيا من هذه المدينة وإنما سنظل نسير في الأراضي السنغالية مائة كيل أخرى حتى نصل إلي نقطة العبور من نهر السنغال إلى الأراضي الموريتانية لأنه لا يوجد خط مسفلت في موريتانيا أمام هذه المدينة (سان لويس).

قطعنا جسراً حديدياً قديماً على هذا النهر، بل بالغ القدم بالنسبة إلى أمثاله إذ قيل إنه أنشىء عام ١٨٥٨ م.

وقصدنا فندقاً عند نهاية الجسر اسمه (أوتيل دي لابوست) أي: فندق البريد فشربنا الشاي فيه وهاتفنا السفارة في داكار فأخبرناها بأمر السيارة وبأننا قد تركناها في بلدة (رو) وأننا قد استأجرنا سيارة أخرى من (سان لويس) إلى (روسو) على نهر السنغال في مقابلة الحدود

الموريتانية. وإن المطلوب الآن هو أن يرسلوا مهندساً إلى سيارتهم ليسعى في إصلاحها. وقد أخبرنا السفير الطبيشي أن وزارة الخارجية الموريتانية سألته عنا وأنه أخبرها بأننا سافرنا براً.

ثم انطلقنا في تمشية قصيرة على النهر. وشاهدنا السنغاليين قد أقاموا على ضفاف نهر السنغال الأبنية الجيدة، ودونها ودون النهر مقاعد قد طليت باللون الأخضر يجلس عليها المتفرجون على النهر. وهو هنا في حجم فرع النيل، لأن هذا ليس بالمجرى الرئيسي للنهر.

وبينما كنا نتفرج على المدينة تجمهر علينا طائفة من المتفرجين ولا أدري على ماذا يتفرجون به من رؤيتنا فحتى ملابسنا هي افرنجية ليست عربية. ولكن السبب الحقيقي لذلك هو كونهم من العاطلين الذين لا عمل لهم إلا مراقبة الناس وتمضية الوقت في لا شيء.

نيل غانة:

ذكرتني حال سان لويس وكونها الحد ما بين موريتانيا والسنغال في هذه الجهة بما كنت قرأته عن هذا النهر الذي أصبح اسمه نهر السنغال في كتابات الأوروبيين المستعمرين، وكان اسمه عند أسلافنا العرب المؤرخين (نيل غانة) وهم عرفوه ووصفوه قبل أن يعرفه الأوروبيون المستعمرون بمئآت السنين.

فقد قال أحدهم وهو ابن سعيد المغربي فيما أذكر: إن (نيل غانة) هو شقيق نيل السودان يريد بذلك نهر النيجر الآن ـ وأنه اي نيل غانة يصب في البحر المحيط الأعظم. وهذا يصدق تماماً على نهر السنغال من دون اشكال.

وفي نصوص عربية عديدة وصفت (غانة) في ازدهار عهدها أزمان كان التجار من العرب وغيرهم يقصدونها للتجارة من المغرب وذلك قبل ألف سنة أي في القرن الرابع الهجري بأنها واقعة على ضفتي النهر فجزؤها الجنوبي فيه الملك وهو كافر، والشمالي يسكن فيه المسلمون وفيه أربعة مساجد، ولكنهم يحترمون المسلمين ولا يتعرضون لمساجدهم.

وقد استمرت (غانة) مملكة مستقلة كما كانت قبل قرون إلى أن تغلبت عليها مملكة مالي فصارت غانة ولاية تابعة لمملكة مالي الكبيرة.

وأطلق بعضهم القول في موضع مدينة (غانة) بأنه على النيل وهو يريد (نيل غانة) هذا الذي هو نهر السنغال، ولا يريد نيل السودان الذي يسمى الآن (نهر النيجر).

والمراد بالمدينة هنا العاصمة فاسمها (غانة) واسم المملكة غانة.

وواضح أن أسلافنا العرب كانوا يسمون (نهر النيجر) بالنيل، أخذاً منهم بتسمية النهر العظيم بالنيل، لذلك يضيفونه إلى السودان فيقولون (نيل السودان) بخلاف نيل مصر إذْ السودان المعروف آنذاك هو السودان الغربي الذي عاصمته مالي، وأما الشرقي العربي الذي عاصمته الخرطوم فلم يكن معروفاً بهذا الإسم، أو لكون بعضهم كإبن بطوطة يعتقدون أنه هو نيل مصر يجري إلى هناك من هذه الجهة وهذا خطأ واضح.

وقد حصل عند بعض المستشرقين إشكال في موضع عاصمة

غانة التي ذكر المؤرخون العرب أنها تقع على النهر، فظنوا أنه ليس المراد بالنهر نهر السنغال الكبير الذي نصوا على أنه هو نيل غانة، وسموه بالنيل لكبره ولأنه شقيق لنيل السودان (نهر النيجر)، كما هو المتبادر من النصوص وإنما ذكروا أن المراد بذلك فرع من النهر كان بضرب في الصحراء، وقد جف الآن وهو واقع كما يقولون في منطقة الحوض جنوب موريتانيا ويبعد عن مدينة (باماكو) عاصمة (مالي) ٣٧٠ كيلو متراً جهة الشمال الغربي.

ويسمى هذا الموقع في الوقت الحاضر (كومبي صالح) وقد وجد المنقبون الفرنسيون فيه أثاراً ومخلفات قديمة من الأواني وغيرها، ولم يكن من دليل على ذلك من نص عربي قديم فضلاً عن غيره من النصوص إلا تأويل أن يكون المراد بالنهر فرع منه قد جف الآن، وهذا ليس بدليل كافٍ. ولكن الفرنسيين يعتمدونه. أما الآثار والمخلفات الموجودة في (كومبي صالح) فإنها تدل على أنها كانت مركزاً من مراكز الإدارة في عهد الحكم المالي على غانا، وليست عاصمة غانة القديمة.

وقد كان سكان ضفة النهر الجنوبية في عهد غانة بعد ظهور الإسلام كفاراً، وهو الآن مسلم الضفتين كلتيهما سواء أكانتا ضفتي هذا النهر العظيم (نهر السنغال) الآن وهو (نيل غانة) في القديم، أو ضفتي فرع منه وأنه في ساحل الصحراء جف كما جف غيره من المياه. فإن ضفتيه كلتيهما مسلمة، بل عريقة في الإسلام وداعية إليه. لم تقف بالإسلام عند العمل به والالتزام بذلك، وإنما شمرت عن ساعد الجد والاجتهاد في الدعوة إلى الله وجاهدت في دفع الدعوة الإسلامية جنوباً من ذلك حتى جاوزت بأكثرية السكان حدود غينيا وهي الآن تتجاوز

حدود (سيراليون) ولله في خلقه شئون، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون.

الإسم الوطني:

وتسمية هذا النهر (نهر السنغال) هي تسمية أجنبية استعمارية وهي محدثة بإجماع الباحثين، ذكروا أن أول من سمى هذا القطر بالسنغال هم المكتشفون البرتغاليون الذين سألوا جماعة من أهل البلاد عن اسم الموضع عندما نزلوا من شاطئه فظن الوطنيون انهم يسألون عن قارب لهم فقال أحدهم (سنوقال) يريد قاربنا.

فظن الأوروبيون أنه يذكر اسم المكان فسموه (سنوقال) التي تطورت إلى (سنغال).

وإذاً لا بد أن يكون له اسم وطني محلي فما هو؟

إنه (ابجك) ومعناها بلغة الولوف الأول (جك) تعني بهذه اللغة الأول، و (أب): أداة تعريف مثل (أل) في العربية، ويقولون: إنه توجد قرية على النهر تسمى (أبجك) أيضاً، سمي النهر باسمها، وربما سميت هي باسمه.

هذا ما أخبرني به مشافهة بعض الإخوة من السنغاليين والموريتانيين ولم أنقله من أي بحث مكتوب.

أما (غانة) عندهم فقد رجح بعضهم أنها قرية تسمى الآن (دغانة) وهي قسمان: أحدهما سنغالي على الضفة الجنوبية للنهر والأخرى موريتانية على الضفة الشمالية، والاسم للقسمين كليهما مثلما كان اسم (غانة) عاصمة مملكة غانة القديمة يقع بقسميه على النهر، وذكروا أنها

تقع بعيداً من (روسو) جهة الشرق أي قبل أن يصل النهر إلى (روسو).

عاد بنا حديث الذكريات إلى الواقع وعدنا نجتاز الجسر الحديدي، وقد فقدنا سيارتنا الجديدة المكيفة المريحة كما فقدنا عيون علي بن الجهم حول هذا الجسر التي قال فيها:

عيون المها بين الرصافة فالجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وانطلقت سيارة الأجرة التي استأجرناها من سان لويس إلى روسو ولكل جزء من أجزائها صوت يحاول أن ينافس صوت محركها، وهي بلا شك بحاجة إلى راحة لأن سائقها لم يبال بالوقت عندما أخذنا نشرب الشاي ونهاتف السفارة في داكار.

وكان الموقع في ريف ساحلي - إن صح التعبير - فلا هو بالصحراوي ولا هو بالخصيب، لأنه على ضفة هذا النهر، ورأينا في البلدة مسجداً ذا صومعة أندلسية أي: منارة مربعة ولكنها غير عالية.

والبلدة ذات شوارع مسفلتة جيدة السفلتة بالنسبة إلى البلدان الإفريقية، وعجبت من شكواهم من القحط وهذه المياه النهرية العظيمة تذهب إلى البحر المحيط الأعظم.

الريف الساحلي:

غادرنا بلدة (سان لويس) مع طريق ساحلي فيه أشجار من أشجار الطلح الصحراوي ولكنها نضرة ريانة بالنسبة إلى أشجار الصحراء. وقد نمت على جانبي الطريق أشجار صحراوية خضر أيضاً.

ولا حاجة إلى التذكير بأن المراد بالساحل هنا: ساحل

الصحراء، لا ساحل البحر، لأننا أخذنا في الابتعاد عن البحر، ولأن تسمية (الساحل) كما هو على حافة الصحراء قد أصبحت اصطلاحاً عالمياً. ومع ذلك فإن في هذه المنطقة بعض المستنفعات التي تبدو ملحة ربما لتصدق أننا في ساحل وإن كنا بعيدين عن البحر. وهي مستنقعات لا ينتفع بها ولم أرَ عليها أشجاراً أو زراعة مع أنها من مياه النهر.

وأما البيوت التي أراها الآن في هذا الريف فهي أكواخ من القش متباعدة، ربما كان ذلك لكونها لا تُسكن إلا في بعض الأوقات.

وقد أخبرنا السائق أن هذه المناطق منخفضة تغمرها مياه النهر في الأوقات المعتادة، ثم امتد الطريق حتى مررنا ببيوت من الطين أحواشها من الأعواد.

ووصلنا مفترقاً للطرق قد أكثروا فيه من اللوحات الإرشادية، وترى منه على البعد كثبان رمل متطامنة حمر.

وقد اتجه الطريق جهة الشمال الشرقي، وكلما أوغلنا فيه قلت الأشجار والأعشاب اليابسة في الأرض رغم كوننا لا نزال جنوب نهر السنغال.

قرية كاوي:

واجتاز الطريق بقرية (كاوي) التي بيوتها من الطين على هيئة أكواخ، وترى من البعد منها كثبان رملية حمر متطامنة.

وهذه الكثبان الرملية ذات المنظر الصحراوي الواضح لا تبعد كثيراً عن مجرى النهر.

وفي الأماكن المنخفضة حول القرية مزارع للأرز تشرب من قناة صغيرة مدوها من النهر.

ثم مررنا بقرية تدعي (تايت) منازلها اسمنتية جيدة ما عدا بعض الأطراف فيها فهي أكواخ من الطين المسقف بالقش.

وعندها كانت هناك مزارع للأرز تشرب أيضاً من قنوات ممدودة من نهر السنغال.

على الحدود:

والحدود التي هي بين موريتانيا والسنغال واقعة على ضفتي نهر السنغال، فالجنوبية منها هي للسنغال والشمالية لموريتانيا.

وقفنا في بلدة (روسو) أو على الأدق في الجانب السنغالي من البلدة وهو الذي يقع منها جنوب النهر فأسرع إلينا الحمالون يتراكضون وكأنما يتسابقون إلى غنيمة، ولم تكد السيارة تقف حتى كانت كل قطعة من أمتعتنا مع حامل واحد والذي لم يجد ما يحمله أمسك بالذي مع الآخر ووقفا يتخاصمان.

والمؤسف أن أكثر الخصام كان باللغة العربية رغم كوننا لم نخرج من حدود السنغال، فمعظم الحمالين هم من الذين يعرفون العربية إما لكونهم من موريتانيا وإما لكونهم ممن عاشوا مع الموريتانيين إلا أنهم جميعاً من السودانيين أو لنقل من السود لأن فيهم من هو أسود وليس من السودانيين، والمراد بذلك من يكون من عبيد الموريتانيين أو الماليين.

وكان الحل في أن نتركهم يتخاصمون على الأمتعة وهم لا

يدرون أين نذهب إلا أنهم جميعاً قصدوا جهة (العَبَّارة) على النهر، ولكننا أوقفناهم، وقد تلكؤا في ذلك قائلين لنا بلهجة الناصح: إن (العَبَّارة) إذا ذهبت الآن لا تسير مرة ثانية إلا في الثالثة والساعة الآن الثانية عشر ظهراً.

غير أن الشيخ الدكوري أخذ جوازينا، وذهب بهما إلى غرفة بعيدة من النهر ظن أنها مكتب الجوازات فأبطأ وهم يستحثوننا، وقلت لأحدهم بالعربية: ألا تخشى أن تذهب العبارة؟ فقال: إن موعدها في الحادية عشرة والنصف ولكنها تأخرت بالناس تنتظر ضيوفاً من السنغال.

فعرفت أنهم يقصدوننا ولكنني لا أحبذ أن يؤخروا الناس من أجلنا، فضلاً عن أن أريد ذلك فربما يكون فيهم من يضر به التأخير.

وكانت مناظر العوز مع تسابق الحمالين تشعر بالفقر على ضفة هذا الخضم العظيم من مياه نهر السنغال، حتى ضفاف النهر لم تمتد منها الخضرة والزراعة، ولم يبد أنها قد استغلت بما يكفي.

ولم يكن الذي يضايق هو ثرثرة الحمالين وأسئلتهم التي لا تدعو إليها الحاجة وإنما تجمهر علينا أيضاً طائفة من الفضوليين الذين لا هم لهم إلا النظر في الغريب وسماع أكثر ما يمكن سماعه من أخباره.

فكانوا يسألوننا بالعربية سؤالاً مباشراً: من وين جيتم؟ ووايش انتم جايين له هنا؟ وأي شيء تعملون، ومن أي بلاد أنتم؟

السبب الأمهات:

اخترت منهم فتى عربي السمات، فصيح الكلمات، إلا أنه أسود

اللمحات، بل هو في السواد كسواد المداد، فقلت له: أنت عربي؟

فأجاب بقوة وفخر: نعم، أنا عربي من أولاد مالك.

فقلت له: إذاً لماذا لونك أسود؟ فأجاب: السبب الأمهات. يريد أن أمه سوداء.

ولقد ذكرني فعل هؤلاء الفضوليين بفعل الأعراب عندنا الذين يسألون الغريب سؤالاً مباشراً عن كل شيء، كما كان ذلك قد خطر على بالي عندما كنت في مدينة (منكار) في شرقي مدغشقر عندما رأيت فضول التيموريين الذين ينتمون إلى قبيلة تيمور العربية وحبهم للاستطلاع وحرصهم على معرفة أحوال الغرباء. مما سجلته في كتاب (مدغشقر: بلاد المسلمين الضائعين).

وقد حاول كثير منهم أن يصرفوا العملة السنغالية التي هي الفرنك الخاص بغرب إفريقية بالأوقية التي هي العملة الموريتانية.

أما النهر فإنه من هنا لا يبدو كبيراً وإنما هو كفرع النيل الكبير، أو هو كنهر دجلة في المنظر غير أنه يظهر أنه في العمق دون النهرين المذكورين.

على نهر السنغال:

ابتدأت (العَبَّارة) في عبور النهر قبل أن ننتهي من أمر الجوازات وهي قديمة مؤهلة لحمل السيارات والناس. فأسرع الحمالون يقولون: اذهبوا للشرطة تسمح لكم بمركب صغير.

وحضر شرطي ليسمح لنا باستئجار قارب صغير خشبي مكشوف أسفله مليء بوحل أسود لا أدري من أين جاءه، وخشبه قد اسود من

الوسخ والقدم والإهمال، مما جعلنا نرفع ثيابنا لئلا تمس أرض القارب ونضع أمتعتنا على ألواح فيه.

ودفعنا أجرته ألفاً وخمسمائة فرنك أي حوالي خمسة عشر ريالاً فجاء الناس يتراكضون وركب معنا عدد منهم ولم أرهم دفعوا شيئاً لصاحبه حتى الحمال ركب معنا لكي يمسك بالأمتعة وينزلها في الجانب الموريتاني، ولم أرَ على النهر أبنية للجوازات ولا للجمرك ولا إجراءات من هذا القبيل بل كل شيء سار بعفوية ما عدا غرفتين على الجانبين متباعدتين أظنهما للجوازات، ولكن أحداً لم يتعرض للرعايا الموريتانيين أو السنغاليين في الجانبين كما لم يتعرض لنا أحد من الجانب السنغالي.

حدود العربية:

كان القارب الخشبي يمخر النهر وأنا أفكر في أنني الآن اجتاز حدود العربية فبعد دقائق أدخل إلى ميدان اللغة العربية الحبيبة، ذلك الميدان الرحب الذي يمتد من هذه النقطة من موريتانيا الموغلة في الغرب إلى تلك النقطة من سلطنة عمان الموغلة في الشرق مؤلفة أطول مساحة لغوية أصيلة في كل أنحاء العالم قبل المد الأوروبي الحديث الذي أوجد للغتين الإنكليزية في أمريكا الشمالية والإسبانية في أمريكا الجنوبية ميادين رحبة جديدة، ولكنها على أية حال ليستا أصيلتين في تلك القارتين وإنما هما وافدتان مع المستعمرين، بخلاف العربية التي وفدت مع الدين واستبد لها الناس بلغاتهم حباً فيها لأنها لغة القرآن الكريم واستمرت خالدة على مدى القرون في تلك المساحات الشاسعة من العالم.

وعجبت - في نفسي - من تقصير بني قومنا نحن العرب نحو لغتهم هذه العظيمة ونحو دينهم الإسلامي الحنيف الذي له الفضل الأكبر في إنتشار هذه اللغة ثم حفظها من الضياع، وقلت: لم لا نتعاون جميعاً من دول وأفراد، فنقيم في كل بلد من بلدان العالم مراكز لتعليم العربية، ونشيد في الدول المهمة مراكز إسلامية تكون منارة للاشعاع، وعاملاً قوياً على نشر ديننا ولغتنا وهما عماد ثقافتنا في ماضينا المجيد، وحاضرنا المتطلع إلى المجد؟

والتفت وأنا في وسط النهر أقارن بين الضفتين المسلمتين على جانبي النهر فأجد المنازل في الجانب الموريتاني مسطحة السقوف، أنصع طلاءً وأنظف جدراناً، وعلى بعضها الكتابة بالحروف العربية.

وعندما اقتربنا من اليابسة الموريتانية لم أجد شيئاً تغير لأن معظم الناس الموجودين في الشوارع وهم ليسوا كثيراً في هذه الساعة من الظهيرة وهي ساعة القيلولة في البلاد الحارة هم في السواد كألوان الناس الذين في الجانب السنغالي أو أكثرهم كذلك، وأما الملابس الظاهرة فهي الملابس الفضفاضة التي نعرفها عند الموريتانيين والسنغاليين.

وذلك بأن المنطقة كانت منطقة اختلاط منذ مدة، فسكان القرى فيها من الأخوة السود أو لنقل إن أكثرية السكان فيها من السودانيين وإنما الأخوة الموريتانيون البيض من العرب والبربر جاؤوا إليها في أزمان قديمة مختلفة واتخذوها دار رعي ثم دار استقرار بعد ذلك.

في موريتانيا:

وقفنا على شاطىء النهر الذي ليس فيه شيء مطلقاً من صنع

الإنسان ما عدا بناء يشبه الغرفة المنفردة أظنها مركزاً للشرطة، ولكن المنطقة حولها مكشوفة. ولعل هذا هو السبب الذي من أجله يمنع المسؤولون هنا من السنغاليين والموريتانيين العبور على القوارب الصغيرة إلا بإذن منهم، وما عدا ذلك يكون على (العَبّارة) ربما كان ذلك من أجل الإشراف على وصول المسافرين أو المتنقلين عليها في حركة ظاهرة.

وهذه النقطة التي نزلنا فيها هي جزء من مدينة (روسو) الموجودة على جانبي النهر الموريتاني والسنغالي بهذا الإسم، وإن كان الإخوة الموريتانيون يسمون المنطقة باسم (دقنى). ويسمون بلدة (روسو) باسم (القوارب) على لفظ جمع القارب، إلا انهم يسكنون القاف، وبعضهم يسميها (القويربات) على لفظ تصغير القوارب. وكانوا يعرفونها قبل مجيء الفرنسيين بلفظ (قويربات الصطارة)، ولا أدري (الصطارة) هذه، ولكن قال لي أحد المشايخ: ان (رسو) أصلها عربي من رسو السفن على النهر.

ومنظر شوارع هذه المدينة وأزقتها اي المرافق العامة فيها ليس أفضل من منظر رصيفتها السنغالية، وإنما الأفضل منها ما كان للأفراد مثل بعض البيوت.

على سيارة الوالي:

وجدنا ضابطاً وشرطياً ورجلاً من رجال الدولة في استقبالنا مرحبين، وقد أخبرونا أن والي المدينة الأخ (رشيد الصالح) انتظرنا طويلاً لأنه كان قد تلقى من العاصمة نواكشوط ما يفيد بأننا نصل في العاشرة، ولكنه اضطر بعد طول انتظار إلى أن يذهب في أمر مهم

وقد أمر بوضع سيارته الخاصة تحت تصرفنا.

أخذ الضابط الجوازين ثم عاد بهما سريعاً، فطلبنا منه أن يبلغ الوالي شكرنا وتقديرنا واعتذارنا عن البقاء، وركبنا سيارة الوالي مع سائق أسود اللون فصيح اللسان اسمه (محمد سامبا) ومع ذلك قال: أصلي تكروني لكن الناس في موريتانيا الآن كلهم واحد.

كان الجو حاراً لأننا في منتصف النهار وفي منطقة صحراوية، لذلك احتجنا إلى ماء الشرب على ضفة هذا النهر الخضم، فقالوا: إن الماء النظيف هو (المنيرال)، وذهبنا نبحث عنه أو نلوذ على حد تعبير السائق الفلاني في حوانيت البلدة وهي قليلة حتى وجدناه بارداً عند صاحب حانوت أبيض اللون من الموريتانيين الذين نعرفهم في بلادنا، ولكن الصعوبة كانت في عدم وجود الإناء النظيف في حانوته ولعله مثلنا في القديم عندما كان صاحب الحانوت لا يذوق شيئاً فيه حتى الماء، وإنما يفعل ذلك كله في بيته، لأنه لا يقضي النهار كله في الحانوت، ولأن حانوته لا يكون في العادة بعيداً عن بيته قبل أن تتسع المدن وتتباعد المنازل فيها.

وبينما كنا عده مر طفل صغير أبيض، ولا بد في التعريف هنا من التنويه باللون لأن السودانيين والعرب والبربر الموجودين في موريتانيا كلهم موريتانيون بطبيعة الحال.

فسألته وعمره لا يزيد على ست سنين ما اسمك؟ فقال بعربية واضحة (سيدنا) فقلت له: أكل هذا الإسم الكبير لك؟ فقال: نعم.

كانت الجولة بالسيارة فيها صعوبة من رداءة الشوارع والأزقة وقلة سفلتتها ولكنها أفادتني في الإطلاع عليها، ومررنا بسوق مليء

باللحم وخاصة لحم البقر، لأن موريتانيا تصدر المواشي الى السنغال، ولأن البلاد تعاني من الجدب الآن فيبيع الناس مواشيهم، ومررنا بمسجد ذي صومعة قصيرة وهي المنارة المربعة الشكل وهذا هو الشكل السائد في المآذن الأندلسية ومن ثم في البلاد المغربية.

ومن الغريب المتكرر شدة حب الاستطلاع عند القوم، وتلك عادة أعرابية كما تقدم.

إلى نواكشوط:

انطلقت السيارة من بلدة (روسو) هذه التي هي على الحدود على طريق اسفلتي ضيق قد تآكلت جوانبه دون أن ترمم، وذلك لمدة قصيرة قبل أن نبدأ برؤية الإصلاح في جانبي الطريق، وعلى العموم فإن الخط الإسفلتي الذي جئنا منه في السنغال هو أفضل منه.

ومن العجيب أن يرى المرء بل يحس أنه دخل في قلب الصحراء منذ دخوله موريتانيا رغم قرب المكان من نهر السنغال أكثر مما يحس بذلك عند وجوده في الجانب الجنوبي من النهر على حين أن الظروف الجوية لا يمكن أن تتبدل بعد عدة كيلو مترات إذا كان ذلك في أرض مسطحة.

ولكن ربما كان السبب في ذلك أن الأرض في الجانب السنغالي من النهر أكثر انخفاضاً فتتسرب اليها مياه النهر، إما من جوف الأرض أو من سطحها فتبدو أقل صحراوية.

أول نخلة:

بعد أن قطعنا عدة كيلات رأينا أول نخلة من نخلنا العربي

الأصيل وهو النخل الحقيقي في مظهره، ومخبره بخلاف نخيل كثيرة رأيناها في داكار وما كان جنوباً منها هي ذات مظهر (نخلي) - إن صح التعبير - ولكنها ليست بذات مخبر صحيح، فهي إما أن تكون نخيل الزيت التي تشبه نخيل التمر إلا أنها أغلظ سوقاً في أكثر الأحيان وثمرها هو الزيت الذي يشبه البسر فيعالج فيخرج منه الزيت الذي يستعمل في المناطق الإستوائية أدماً نافعاً.

وإما أن تكون النخيل من أشجار النارجيل التي تكون هي أدق سوقاً من نخيل التمر وطلعها من جوز الهند المعروف.

والنخلة العربية التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها طلعاً يكون في أوله رطباً جنياً وفي آخره تمراً لذيذاً هو غذاء وفاكهة هي وسط بين النخلتين الزيتية والنارجيلية كما يكون مهدها وسطاً بين البلاد الاستوائية، والبلاد الباردة الشمالية.

ومع ذلك كنت أتوقع أن أرى نخلاً كثيراً في هذه الصحراء العربية لأن الصحراء واللغة العربية والرمال الذهبية أو الفضية والإبل كلها تكاد تكون متلازمة كما تكون الثياب الواسعة ملازمة للحياة الصحراوية الأصيلة.

غير أنني لم أرَ نخلاً كثيراً هنا، بل لم أرَ خضرة مزروعة هنا إلا ما لا يكاد يذكر.

صحراء حقيقية:

امتد الخط الإسفلتي في صحراء حقيقية خالصة ليس فيها إلا الرمل الأحمر، وليس فيها أعشاب أو حشائش ما عدا الطلح الأخضر

النضر الذي يشبه الطلح الموجود في وديان الأماكن المرتفعة في بلادنا مثل منطقة الطائف.

ولكن الشيء الموجود فيها هو كثرة الخيام التي ليس حولها بلدان عامرة متصلة المباني، وإنما هي خيام منصوبة في الصحراء كثيراً ما تكون في مجموعات غير متلاصقة شبيهة ببيوت الأعراب عندنا إلا أنها ليست من الشعر.

ولا شك في أن بيوت هؤلاء الأخوة الموريتانيين قبل أن يتخذوها من الخيام البيض كانت من الشعر كبيوت الأعراب أو من الأدم وهي الجلود الحمر كما هي بيوت الطوارق الموجودين في ساحل الصحراء إلى الشرق من موريتانيا.

ويرى المرء وبخاصة على شفير الأماكن المنخفضة قليلاً من الغرف من لبن الإسمنت منفردة، ولعلها تكون لذوي اليسار الذين يسكنون فيها في أوقات معينة ويتركونها إلى المرعى في أوقات الربيع والخصب. إلا أنها ليس عندها من المرافق العامة شيء كما أن الخيام كذلك لا يرى المرء حولها أية مرافق عامة.

وهناك بعض الصنادق أي الأكواخ المقامة من الخشب أو الصفيح بصفة رثة ولكنها ليست كثيرة.

كله بسبب الجفاف:

ووجود هذه الخيام والغرف المنفردة أو المجتمعة و (الصنادق) هو بسبب الجدب الذي أذهب مواشي كثير من المواطنين الذين يعيشون على الرعي والتنقل بالماشية، فاضطروا إلى البقاء هنا. ومن

كان منهم له ماشية وعنده من يقوم عليها أرسلها جنوباً إلى داخل حدود مالي والسنغال، وربما وصل بعضها وبخاصة من البقر إلى حدود غينيا وراء ذلك.

وهناك في الطريق أماكن منخفضة كثيرة ولكن انخفاضها غير حاد، وفي بعض هذه الأماكن المنخفضة توجد زراعات بدائية نزرة ترى على هيئة مجموعة خضراء لا تتعدى ما كان عندنا في الماضي من المزارع يسقيه بعير أو بعيران، وفي أكثرها توجد نخلة أو نخيلات معدودة مغروسة حديثاً يبين ذلك من كونها قصيرة.

أما ما عدا ذلك من مظاهر الزراعة فلا يرى منه المرء من هذا الطريق شيئاً. وقد سألت السائق فقال: إن المنطقة هذه كلها هكذا ليس فيها زرع.

ورغم صغر هذه الأماكن وقلة خيامها، أو منازلها الأسمنتية المؤلفة من غرفة واحدة أو غرفتين متداخلتين فإن اللافتات التي تبين أسماءَها موجودة مكتوبة بالعربية تحتها الفرنسية.

نخيل الغضب:

وهناك وديان منخفضة ذات تربة ملحة قد نمت فيها أشجار الدوم الذي طلعه المقل وهي أشجار موجودة في بعض الوديان القريبة الماء من سطح الأرض في عالية نجد، ويشبه منظرها منظر النخل على البعد.

ومن ذلك ماء اسمه (مران)، جاهلي التسمية ولا تزال تسميته لم تتغير، وكان الحجاج من أهل نجد يمرون به ويأخذون من (مقله) أي

طلعه هدية لأطفالهم ليتفرجوا به، وبعض الفقراء يدقونه ويلتهمونه بعد أن ييعدوا نواته الكبيرة.

وقد روت العامة عندنا قصة في كيفية وجود هذا الدوم، لا شك في أنها من بقايا ما في أذهان قدمائهم من خصب في تلك المناطق تحول إلى جدب بعد أن عم التصحر أرض العرب في عصور سابقة.

وتقول تلك القصة: إن أحد الأولياء وبعضهم يقول: إن أحد الأنبياء أتى أهل بلدة يكثر فيها نخيل التمر وكان جائعاً، فطلب منهم أن يعطوه شيئاً من التمر يتبلغ به. فجحدوا التمر الذي عندهم وأنكروا أن يكون عندهم شيء منه، فقال: كيف لا يكون عندكم تمر وهذا النخل كثير في بلدتكم، فقالوا له: هذا ليس نخل تمر، إنه شجر غير شجر النخل، وإنه لا يثمر، فدعا عليهم بأن يكون كذلك إن كانوا كاذبين.

قالت العامة: فانقلب نخلهم منذ تلك الواقعة (دوماً) يشبه النخل، ولكنه ليس بنخل، ولا يثمر تمراً، ثم انتقل من بلدتهم إلى أماكن أخرى.

إن هذه اسطورة من أساطير العوام، ولكنها توحي بقرب مظهر شجرة الدوم من نخلة التمر.

بلاد الخيام:

وقد تجاوزنا ذلك إلى منطقة كلها رملية منبسطة أي غير ذات كثبان فيها أشجار من الطلح والأشجار الصحراوية الأخرى.

وفي هذه المنطقة بالذات رأينا بيوتاً سوداً من بيوت الأعراب.

وأكثر أهل موريتانيا وبخاصة في خارج المنطقة الجنوبية هم من الذين كانوا يسكنون الخيام في فترة من فترات حياتهم.

ولعل هذا هو السبب الذي جعل بعض الناس يفسرون كلمة موريتانيا بأنها (بلاد السمر أهل الخيام)، فيقولون: إن كلمة (مور) كان يطلقها الرومانيون على السمر من سكان الصحراء ومن جاوروهم، ثم أخذ الإسبانيون والبرتغاليون يطلقونها على المسلمين من أهل الأندلس والبلاد التي جاؤوا منها. حتى أصبحت هذه التسمية لديهم فيما بعد ذلك تطلق على المسلمين عامة، ولذلك يُسمى إخواننا من أهل الفلبين جنوب الفلبين (مورو) أي المسلمون ويسمون حركتهم التحررية (جبهة تحرير مورو).

وتلك التسمية (بلاد الخيام) ربما لا تكون ظاهرة الصحة كما هي ظاهرة لنا الآن، لأن معظم الأهالي وبخاصة منهم من يسكنون خارج منطقة الحوض والمناطق التي فيها بلدان قديمة إنما يسكنون الآن في الخيام سواء أكانوا مختارين كما هي عادتهم أم كانوا مضطرين بسبب موت ماشيتهم من الجدب والمحل. أو هذا على الأقل هو ما يصدق على الموريتانيين البيض من العرب والبربر في الوقت الحاضر.

بين صحرائنا وصحرائهم:

لا أثر هنا لمدن أو قرى مما يرى من الطريق ما عدا تجمعات البيوت المؤلفة من غرفة واحدة مما يدل على أنها بنيت حديثاً كما يكون في صحرائنا عندما يتخلف المطر، ويعم الجدب وتموت مواشي الأعراب فيلجئون إلى الاستقرار مؤقتاً في خيام، وبعضهم يكون في

أطراف القرى والمدن يعمل إذا ما وجد عملاً. أو يظل عاطلاً. ذلك بأن صحراءنا إذا اجدبت أصبحت قفراً، قد مات شجرها، واغبرّ أديمها، فلا تجد فيها عوداً أخضر، ولا شجرة نضرة.

وأما هذه الصحراء الموريتانية فإننا لا نزال نرى هنا أشجاراً صحراوية خضراً، وأشجاراً أصغر منها خضراً لازقة بالأرض أيضاً مما يوحي بأنه يمكن للإبل والماعز أن تعيش عليها إلا أنني لا أعرف شيئاً عن الماء العذب فيها.

وربما كان أهل الماشية يفضلون الذهاب بها إلى جنوب البلاد الذي هو واقع في منطقة ساحل الصحراء أو ما وراء الحدود جنوباً حيث يمكن أن يوجد للماشية شيء من المرعى كما سبق.

إلا أن الذي أعجب له كون الناس هنا يسكون في هذه الخيام والبيوت المنفردة المنعزلة التي لا تتوفر فيها المرافق العامة، إلا إذا كان ذلك بصفة مؤقتة كما أخبرني بعضهم.

هذا وسائقنا صحراوي أصيل رغم كونه أسود شديد السواد، لذلك يسير بسيارته على هذا الطريق الذي حسن أمره بعض الشيء فأصبحنا نرى الترميم والإصلاح ظاهرين على جانبيه إلا أنه لا يعدم حفراً ونقراً صغيرة في بعض الأماكن يتفاداها السائق وهو يسير بسيارته التي تكاد تطير لأنه يسرع سرعة مذهلة لا تستقر إلا على رقم المائة والأربعين كيلو متراً في الساعة.

ولقد نصحته ثم عذلته عن هذه السرعة المفرطة فلم يفد ذلك فيه إلا لشيء من الوقت قصير ما يلبث أن ينسى نصحي فيطير.

وهذه عادة عرفناها من السائقين الصحراويين في بلادنا لأن كون

السائق في الصحراء يرى الطريق وما يحيط به أمامه خالياً لمسافات بعيدة يجعله ينطلق بسيارته آمناً من المفاجآت فيه، غير أنه لا يأمن من حدوث شيء مفاجىء في سيارته وهذا ما قلته له.

منطقة الخوارة:

لكلمة الخوارة في صحرائنا معنى هام فهي تعني الناقة اللبون أو كثيرة اللبن، قال أعرابي محدث من بني الصحراء يخاطب ناقته:

يا ناقتي الخوارة نجدِ زهـا نـواره

عضيدةٍ ومرارة

والعضيدة والمرارة: عشبتان صحراويتان جيدتان لإدرار اللبن.

وعندما سمعت هذه الكلمة هنا في هذه الصحراء الموريتانية قلت: هذا الاسم يصلح لهذا المكان غير أنهم أخبرونا أنه ليس اسماً للإبل، وإنما لأصحاب إبل، فالخوَّارة هنا اسم لقوم من العرب الأصلاء أصحاب شجاعة وهم معروفون بذلك ومعروفون أيضاً بأنهم أصحاب علم، وهذا غريب من أمر هذه الصحراء الموريتانية أن يشتهر أناس من أهلها وهم أهل بادية بالعلم كما يشتهرون بالشجاعة.

وجميع المساكن في هذا المكان - إن صح التعبير - هي من الخيام، ورأيت فيها بيوتاً من بيوت الشعر السود، وهي لا تبعد كثيراً عن المحيط الأطلسي، بل تعتبر على الساحل لأن الخط الذي نسير عليه لا يبعد من هذه النقطة إلا مسافة ثمانية كيلو مترات عن البحر.

وقالوا لنا: إن هؤلاء العرب من قبيلة كبيرة يقال لها: (الأغلال).

في صحراء الرمال:

كل المنطقة التي مررنا بها حتى الآن هي صحراء رملية ما عدا بعض (السباخ) أي الأراضي الملحة المنخفضة.

وقد مررنا بعد منطقة الخوارة بقرية بيوتها مبنية بلبن الإسمنت التي تبدو على هيئة غرفة منفردة وكأنها خيمة من هذه الخيام البيض في هذه الصحراء وهي غير متلاصقة، بل هي مبثوثة متفرقة، ولذلك لا مجال لوجود الأزقة أو الشوارع، وإنما هو الفراغ غير المنتظم في سعته أو ضيقه.

هجرة تجنت:

الهجرة في اصطلاحنا في وسط الجزيرة العربية هي القرية التي يبدأ الأعراب الاستيطان بها من أول تركهم حياة التنقل في الصحراء، ويكونون في أول عهدهم في حالة وسط بين حالتي البدو والحضر.

وقد مررنا هنا بمستوطنة اسمها (تجنت) قالوا إنها اتخذت لتوطين البدو، ولعلها أقيمت قبل أن يجبر المحل والجدب كثيراً من أهل البدو على الاستيطان إجباراً. وهي ذات بيوت متفرقة أيضاً أكثر أهلها إن لم يكونوا كلهم من البيض الموريتانيين الذين نعرف أمثالهم في بلادنا، وليسوا من السود الذين يسكنون جنوب موريتانيا الذين يراهم المرء بكثرة عندما يأتي كما أتينا من هذه الجهة من السنغال.

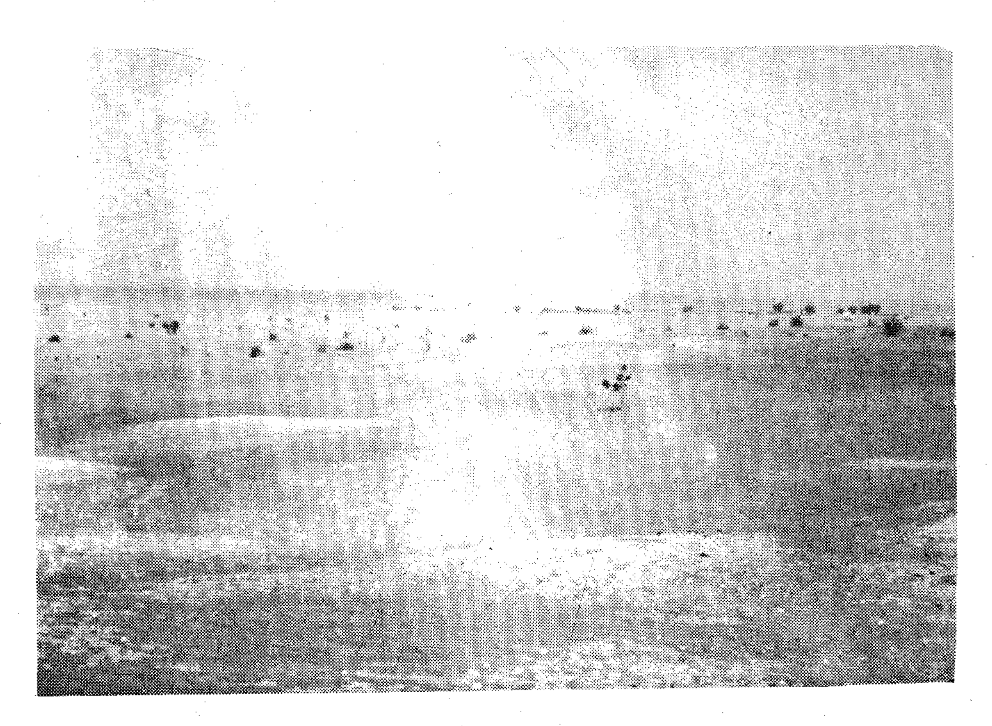
وقد رأينا فيها ما ذكَّرنا بأننا في بلاد أعراب بيض وهو بيت أسود من الشعر ليس بعيداً.

وهم هنا لا يسمونها هجرة وإنما يسمونها قرية وهي جديرة باسم

(هجرة) أو مستوطنة مما يؤدي المعنى الدقيق لاسمها.

ومما يجعلها تشبه في عيني هجر البادية في بلادنا أن أشجار الطلح قلّت حولها وأنها في منطقة جرداء تماماً كما تكون الصحراء عندنا في غير زمن الربيع.

وهنا رأيت زراعة قليلة في مكان منخفض غير بعيد عنها نخيلات قصيرة معدودة، إلا أن المواشي هنا قليلة لا يكاد المار من الطريق يرى منها شيئاً.



الرمال الذهبية في موريتانيا

ومن الملاحظ أن الطريق إذا بعُد عن ساحل المحيط حسن لون التربة فأصبح الرمل أصفر أو أحمر، وإذا قرب من الساحل أصبح لونه رمادياً أغبر، أو أبيض غير ناصع.

كما أن الأماكن التي تقرب من المحيط تكثر في المواقع المنخفضة فيها أشجار الطرفاء التي تنبت في السباخ والأراضي الملحة القريبة الماء من سطح الأرض، وهذا أمر معهود في بلادنا.

كما يرى المرء في هذه الأراضي المنخفضة أشجاراً لا ندري ما إذا كانت صالحة لرعي الماشية فهي من الأشجار التي لا أعرفها.

والحقيقة أن الحاجة العلمية ملحة إلى دراسة الأشجار والنبات في هذه الصحراء الإفريقية ومقارنتها من حيث اللفظ والاستعمال بالأشجار الصحراوية في الجزيرة العربية. وهذا أيضاً له فائدة كبيرة في معرفة الحالة اللغوية للعرب الموجودين هنا، وما إذا كانوا قد نقلوا معهم أسماء النبات إلى هذه الصحراء، أم إنهم أخذوا أسماءه من اللغة البربرية التي كانت لغة القبائل الصحراوية البربرية التي سكنت هذه الصحراء قبلهم.

وعندما رأيت هنا قليلاً من الماعز يرعاها صاحبها سألت السائق عما إذا كان يوجد في هذه الصحراء صيد يمكن أن يستمتع به الصائد فيشتوي منه ويأكل ما يكفيه ولو إلى أن يعود إلى أهله. فقال: إن الصيد موجود في داخل الصحراء، أما في هذه المناطق فلا يوجد لأنها مأهولة بالناس.

كما رأيت إبلاً يرعاها صاحبها وهي هزيلة بسبب الجدب. أما

السيارات على هذا الخط الإسفلتي فإنها ليست كثيرة في مثل هذه الساعة من النهار.

تويرجة أو العشرة:

ولفهم هذا العنوان الغامض لا بد أن ننوه بأن (العُشرة) هذه هي بضم العين وفتح الشين وليست العشرة التي هي نصف العشرين.

والعُشرة المذكورة واحدة شجر العُشَر وهو شجر صحراوي معروف في بلادنا.

وقد مررنا بقرية قالوا ان اسمها (تويرجة) بصيغة تصغير (تورجة) وهي عندهم شجرة العُشر بعينها إذْ أروني إياها. وقالوا: هذا هو اسمها باللغة الحسانية التي هي العامية الموريتانية، ولا شك في أن الحسانية قد أخذتها من البربرية التي سبقتها إلى التوطن في هذه البلاد وتسمية الأشجار التي تنبت فيها، وقلت لهم: إن العامة في بلادنا من سكان الصحراء يزعمون أن شجرة العُشر هذه من مساكن الجن. فقالوا: إن العامة هنا يزعمون هذا الزعم أيضاً، فقلت: ونحن ننتفع بأغصانها اليابسة فنجعلها فحماً نخلط به ملح البارود والكبريت ونعالجه بالدق فيصبح باروداً متفجراً، فقالوا: ونحن نعرف عنها كذلك.

هذا وقبل الوصول إلى نواكشوط بحوالي عشرين كيلاً ظهر الجدب الشديد على الأرض حتى لا ترى شجراً أخضر رغم أننا قربنا من المحيط الأطلسي فأصبحنا نراه من الطريق وذلك بأن الأرض القريبة من المحيط منبسطة تتسرب منها أبخرة المحيط إلى الداخل وتذوب في سموم الصحراء. ولو كانت الأرض جبلية تمسك بالأبخرة

لكان من المحتمل أن تكون خصبة خضراء بخلاف ما خلفها من الصحراء فإنه لا يتأثر بقربه من المحيط.

ثم أوقفنا حاجز للجندرمة أو الحرس الوطني عند مركز على الطريق مؤلف من حجرة مبنية بلبن الإسمنت ولا باب عليها. ويجانبها خيمة قديمة.

وقد تقدم إلى سيارتنا ضابط أسمر كأنه بدوي شديد السمرة من بلادنا ومعه جنديان أسودان. فسأل عن الركاب سؤالاً سهلاً معتاداً ثم أدى التحية وتركنا ننصرف.

قبل الوصول إلى نواكشوط:

قبل الوصول إلى العاصمة بإثني عشر كيلاً رأينا على جانبي الطريق قمائم تحرق بعضها ينبعث منها الدخان فعرفنا أننا قربنا من العاصمة، وكان من غير اللائق وجود هذه القمائم على هذا الطريق الهام الذي يفترض أنه طريق دولي، بل الأفضل أن يبعدوها عنه وربما كان عذر القائمين على ذلك أن سياراتهم قد يصعب عليها الدخول بلا إسفلت إلى داخل المنطقة التي هي رملية وان كان رملها غير منهال.

ولا يوجد في هذه المنطقة عود أخضر لا مما تنبته السماء ولا مما استنبته الإنسان، بل المنظر كله منظر الصحراء الحقيقية بل الجرداء.

وعند مركز للشرطة على مشارف العاصمة وجدنا في استقبالنا الأخ سليمان الناصر القائم بأعمال السفارة السعودية ومعه الشيخ صالح السبيعي الملحق الديني بالسفارة. وقالا: إننا علمنا بتوجهكم من

السفارة السعودية في داكار ومن وزارة الخارجية الموريتانية وقلقنا من تأخركم.

ثم انطلقنا مع ضواحي البلدة الصحراوية رغم أننا كنا نرى وسط المدينة ذا شجر أخضر شديد الإخضرار عرفنا بعد ذلك أنه شجر مناسب للجواء الصحراوية مجلوب من الخارج في الأصل، وفي الضواحي البعيدة من المدينة بيوت منفردة غير مسورة من الطراز الشائع الذي رأيناه في الطريق.

وذكرنا منظر بعض هذه البيوت بمنظر كان مألوفاً في بلادنا ونسيناه الآن وهو منظر بعض البيوت التي ركب الرمل حوائطها حتى ارتفع فكاد يفقد الحائط حصانته.

وقد أخبرنا إخواننا في السفارة أن الحكومة الموريتانية قد حجزت لنا في فندق (صباح) على شاطىء المحيط، فمررنا بحي للعمال واقع بين المدينة وبين شاطىء البحر ويسمى (اكو جيم) وجيم هي أحد حروف الهجاء وهو للعمال الذين يعملون في البحر وكل الذين شاهدناهم منهم هم من السود، وقد تبين لنا بعد ذلك أن معظم العمال الذين يعملون في الأشغال التي تتطلب جهداً جسمانياً كبيراً هم من السود، من جنوب موريتانيا أو من الأقطار الإفريقية المجاورة أو من أنسال العبيد في البلاد.

تحريم الدخان:

مررنا بلافتة مكتوبة بالعربية نصها (تحريم الدخان) فظننت أن المراد بها أنه لا يجوز شرب الدخان هنا، اتقاء للخطر، ولكني فهمت

أنها هي العبارة التي ألفناها في البلاد العربية المشرقية بلفظ (ممنوع التدخين).

ومع المظهر الصحراوي لضواحي العاصمة بل للمنطقة كلها التي تقع فيها العاصمة فإن المدينة نفسها فيها مساحات خضر وأشجار جيدة المظهر. وقد سألتهم عن الماء من أين أحضروه ما دام أنهم في منطقة صحراوية منبسطة واقعة على شاطىء البحر فأجابوا إنهم قد سحبوا الماء من وادٍ يبعد عن العاصمة زهاء تسعين كيلو متراً وأنه هو الذي يستعملونه للشرب والتشجير وغير ذلك من الأغراض.

وعرفت أنهم مثلنا في الحاجة إلى الماء، ومعالجة إحضاره، ولو من مسافة بعيدة تكلفهم جهداً ومالاً وصيانة مستمرة.

هذا إلى جانب المظهر العام للمدينة التي تقع على شاطىء البحر والتي تشبه البلدان البحرية السعودية غير الزراعية الواقعة على شاطىء البحر الأحمر قبل التطور الأخير الذي جعل المدن السعودية ترتدي حللاً خضراً رغم الأثمان الباهظة لتلك الحلل.

نـواكشـوط:

اختلف في معنى اسمها على أقوال وان اتفق العارفون على أنه أعجمي ليس بينه وبين العروبة سبب مثله في ذلك مثل اسم الدولة (موريتانيا)، وان كانت العجمة في الاسمين مختلفة فاسم العاصمة بربري واسم الدولة روماني الأصل أو مستوحى من الرومانية.

وأعدل الأقوال وأقربها إلى الصواب أنه كان بئراً اسمه بمعنى (ذي كشوط) فنوا أو (ن) بالبربرية معناها: صاحب أو ذو، و (كشوط)

اسم نبت معروف في المنطقة باللغة البربرية ـ وقال لي أحد علماء موريتانيا: إن (نواق) معناها: ذو، وشوط: الصدف، وقد سارع بعض المتمعلمين المتعجلين فذكر أن صحة اسمها (نواق الشط) وإن معناه (نوق الشط) ـ جمع ناقة وهي الأنثى من الإبل لكون البلاد بلاد إبل، ولكنه جهل أن (ناقة) لا تجمع على (نواق) وأن اضافتها الى الشط غير صحيح أيضاً لأنه لا يوجد (شط) هنا والشط في اللغة العربية السائرة هو النهر أو ضفته.

وما مثل هذا المتمعلم المتمحل إلا مثل من سمى جمهورية مالديف (محل الذئبة) أخذاً من اسمها مالديف الحديث، أو اسمها القديم عند ابن بطوطة (ذيبة المهل) وجهل أنه لا توجد في بلاد (مالديف) ذئاب وإنما أصل اسمها (مال ديب)، ومعناه: جزيرة السمك، لأن (مال)، سمك و (ديب) جزيرة باللغة السنسكريتية التي كانت سائدة في تلك المنطقة من جنوب الهند في القديم مثلها في ذلك مثل (سرنديب) الذي كانت تسمى به جزيرة (سيلان) أو (سريلكنا) الآن ومعناه: (جزيرة الياقوت).

وصلنا الفندق فوجدنا في الاستقبال الأخ (محمد ولد أحمد بلقرون) وهو موظف المراسم المعين لمرافقتنا ووجدنا المهندس عبد الله بن حمود الجنيني ممثل وزارة الأشغال والإسكان في المملكة العربية السعودية، والمهندس أحمد عمر العمري ممثلاً عن وزارة المالية في المملكة، وقد قدما إلى نواكشوط لنقوم معاً بتسليم جامع كبير أقامته المملكة العربية السعودية في نواكشوط وستسلمه هدية إلى موريتانيا.

فأخبرنا الأخ (بلقرون) عن البرنامج الذي وضعته الحكومة

الموريتانية لزيارتنا وقال: إنه برنامج مقترح يمكن تغييره إذا أردنا.

وأول ما فيه اجتماع بعد ربع ساعة مع بعض الإخوة من الرسميين الموريتانيين الذين جاؤوا للاستقبال.

وقد ضم الاجتماع طائفة منهم فيهم الرسميون الحكوميون وفيهم الوجهاء من غير الموظفين، ويجمع بين الجميع محبة المعرفة، وفصاحة اللفظ، وسرعة الاستشهاد بالشعر ما كان منه إنشاءً، وما كان إنشاداً.

وقد أكثر الإخوة من الترحيب وهم الأدباء والشعراء الذين لا يوجد لهم مثيل في الكثرة في البلدان العربية الأخرى.

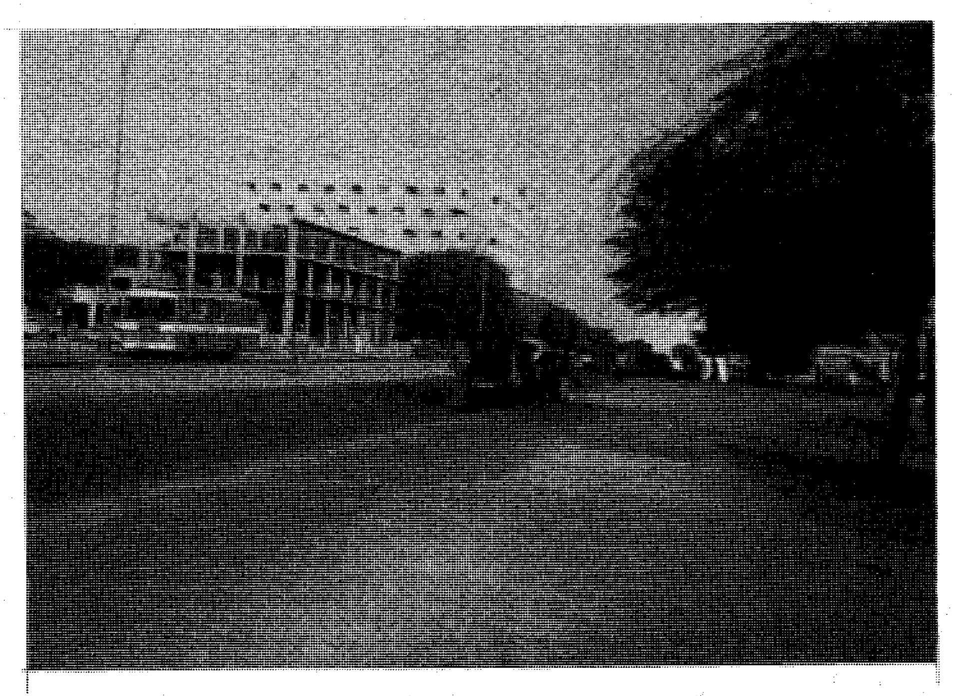
وفي ساعة الأصيل:

لم أستطع أن أغالب الرغبة في رؤية هذه المدينة العربية العزيزة التي أدخلها لأول مرة فأصطحبت موظف المراسم المرافق الأخ (بلقرون) ومدير مكتب رابطة العالم الإسلامي في نواكشوط الشيخ محمد فال البناني في رؤية خاطفة للمدينة نسابق بها حلول الظلام.

فانطلقنا بالسيارة من الفندق الذي يقع على شاطىء البحر يفصل بينه وبين المدينة فراغ من الأراضي فكان أول ما مررنا به حياً كُتب عليه اسمه (تفرغ زين) وهي جملة من اللغة العامية الموريتانية المعروفة بالحسانية معناها تنتهي وهي جميلة أو: تنتهي المسألة على خير ما يرام.

ثم سلكنا شارع جمال عبد الناصر وهو أهم الشوارع في المدينة ذو اتجاهين بينهما جزيرة غرست فيها أشجار النيم الأخضر، وعلى

الجانبين أشجار خضر أخرى رغم كون المدينة ليس في منطقتها ماء، وتقع على هذا الشارع الأبنية الهامة مثل المصارف والفنادق أحدها فندق الأمان، والثاني فندق مرحبا، والمكاتب الحكومية مثل رئاسة مجلس الوزراء وقصر العدالة والمدرسة الوطنية الثانوية والإذاعة، ومسجد مبني على طراز وطني تقليدي اسمه (جامع العاصمة) له صومعة مربعة الشكل.



شارع في نواكشوط

وجميع اللافتات المكتوبة على هذه الأماكن هي باللغة العربية تكون معها الفرنسية في أكثر الأحيان وتكتب أسفل منها.

ثم أفضى الشارع إلى متسع في أيمنه مطار نواكشوط وبرجه مربع الشكل كأنه الصومعة لأن هذا هو الطراز الوطني المستعمل للمنائر والأبراج في المغرب العربي الأقصى الذي تعتبر هذه البلاد الموريتانية ثقافياً جزءاً منه.

ومن الطريف في الأمر أنهم بنوا ديوان الشرف أو (صالون) الشرف فيه على هيئة مجموعة من الخيام مع أن بناءه بالإسمنت المسلح، وذلك رمز منهم إلى حياتهم التقليدية في الخيام.

شارع فيصل:

من نهاية شارع عبد الناصر الذي دخلناه من جهة الغرب دخلنا إلى شارع آخر مهم هو (شارع فيصل) سمي باسم الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله. وعليه بعض الحوانيت رأيت لافتة على أحدها لفظها (مؤسسة بنون عبد الحميد) أي: بني عبد الحميد، ورأينا منه المدرسة الثانوية التطبيقية.

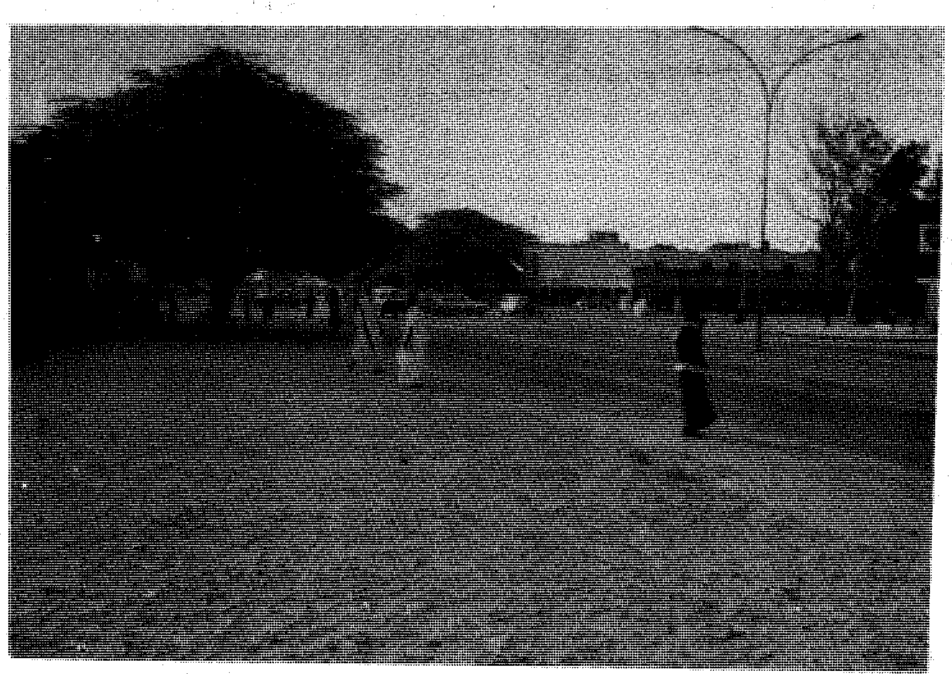
وسألتهم بهذه المناسبة عن الجامعة الوطنية الفتية المسماة (جامعة نواكشوط) فأخبروني أنها موجودة ولكنها تواجه مشكلة المقر فليس لها بناء خاص بها، والكليات الموجودة فيها الآن توجد في أماكن متفرقة. ويوجد بها الآن ثلاث كليات فقط، وكان إنشاء هذه الجامعة قبل ثلاث سنوات.

ثم انتقلنا إلى رؤية الأحياء الجديدة في شمال المدينة، وكلها مبنية بالإسمنت المسلح وما رأيت في العاصمة بيتاً بالصفيح أو القش. وهذه البيوت يوجد في بعضها وفي الشوارع الواسعة منها أشجار خضر.

المفـاجـأة:

والمفاجأة التي واجهتني في هذه المدينة معرفتي أن عمرها الحضاري لم يبدأ إلا منذ سنوات قليلة لا تكاد تذكر في أعمار المدن ومع ذلك فإنها قد خطت خطوات واسعة في طريقها إلى أنْ تصبح عاصمة جيدة.

بل إنها أحسن تنظيماً ومرافق من عواصم بعض البلدان الأفريقية التس سبقتها في هذا المضمار، فقد ابتدأ عمر مدينة نواكشوط منذ ثلاث وعشرين سنة بالضبط وذلك في عام ١٩٦٠ م، عندما استقلت البلاد، وقد صدر مرسوم بتسميتها عاصمة لموريتانيا قبل ذلك بحوالي سنتين وبالتحديد في ٢٤ يوليو عام ١٩٥٧ م. وكان في مكانها حصن قديم اسمه نواكشوط ويقال: إنه على بئر فسميت المدينة باسمه.



ضاحية في نواكشوط

وكانت أكثر المقومات اللازمة لازدهار العواصم غير متوفرة، فالمنطقة صحراوية ولذلك لا تكاد توجد فيها المياه، بل إن الطقس نفسه غير مناسب لأن الرياح السافية التي تسفو الرمال تهب على المدينة فتركب أصول حيطانها فتصبح إزاحتها مشكلة وبخاصة ما كان منها بارزاً، مما أضاف أعباءً على بلدية المدينة إلى جانب المشكلة الرئيسية وهي قلة الموارد المالية بسبب قلة البضائع التي تصدر وتكتسب منها العملة الصعبة اللازمة لشراء الآلات والمعدات.

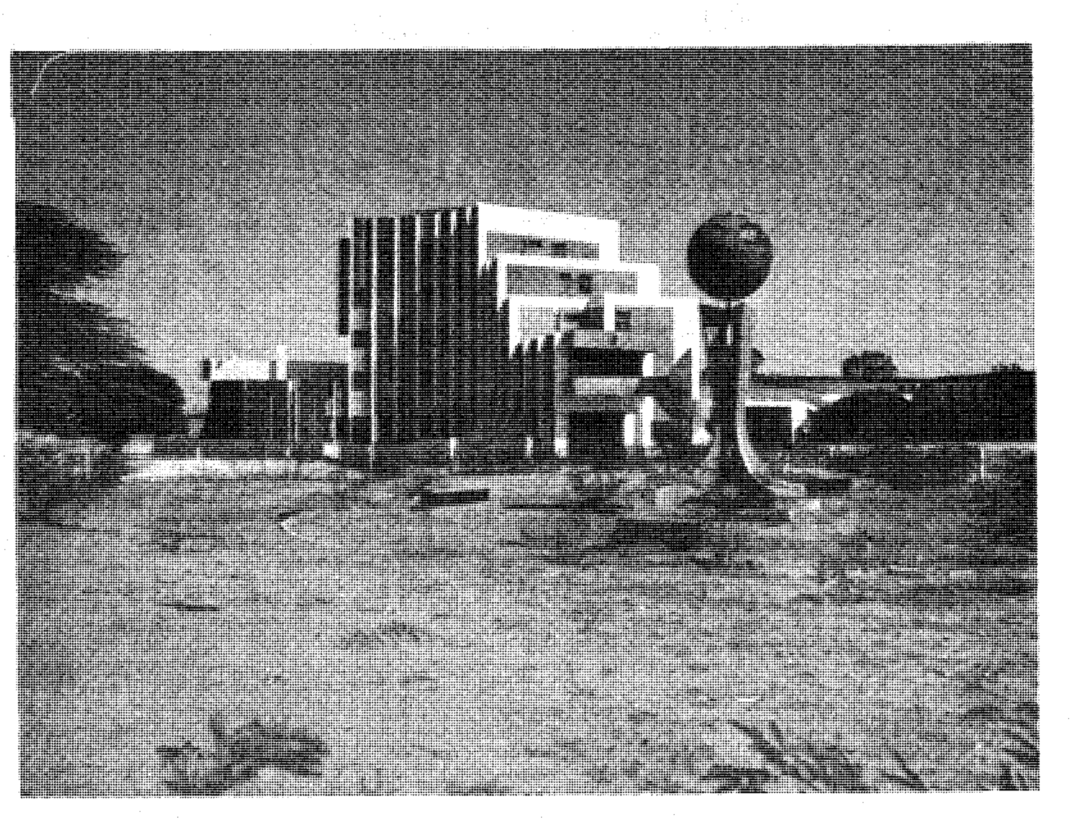
ولكن الإخوة الموريتانيين تغلبوا على ذلك بالحزم والعزم والاقتراض من الدول الشقيقة والصديقة، حتى أوجدوا هذه المدينة التي يبلغ عدد سكانها الآن مائة وعشرين ألف نسمة، وأصبح فيها من الأبنية الحديثة والخدمات العامة ما لا يكاد يصدق به من عرف الإمكانات المحدودة للبلاد.

مفاجأة أخرى:

وهي أنني لاحظت خلال تجوالي في المدينة أن نسبة ذوي اللون الأسود من سكانها أكثر مما تصورته بل إنني تيقنت أن نسبتهم تبلغ نصف السكان على الأقل.

وقد أخبرني إخواني أن السبب أنه إلى جانب المواطنين الموريتانيين ذوي اللون الأسود من سكان جنوب البلاد فإن هناك نسبة من العمال الذين قدموا من البلدان الإفريقية المجاورة للعمل لأنهم هم عماد العمل البدني الشاق في البلاد، بالإضافة إلى أن هناك أعداداً من السود الذين كانوا هم أو آباؤهم من العبيد الأرقاء. ويسمون الآن (الحراطين) التي يقول بعضهم إن معناها: الحر الطارىء أي الذي

طرأت عليه الحرية بعد أن كان عبداً، مع أن هذا ليس صحيحاً، لأن بعضهم الآن أحرار ولا يعرف أنهم كانوا أرقاء من قبل. وهذا بطبيعة الحال هو الموجود في المدينة نفسها أما في خارجها فإن الأمر يختلف إذ في الجنوب أقلية من السودانيين والشمال أكثرية من البيض.



مبنى صندوق الضمان الاجتماعي في نواكشوط

الرق في موريتانيا:

على ذكر الرق، ربما يحسن أن نلقي بكلمة عنه في هذه البلاد.

فموريتانيا تعتبر من البلاد التي تأخرت في تحريم الرق من الناحية القانونية فلم يصدر قانون رسمي بإلغاء الرق إلا في شهر حزيران يونيو من ١٩٨٠ م أي: قبل أقل من ثلاث سنوات، ومع ذلك لا يزال بعض الناس يمارسون الرق بصفة غير قانونية حتى الآن، وبعض الذين كان عندهم عبيد لم يعطوهم حريتهم بل لا يزالون في قبضتهم، وحتى العبيد لا يحاولون التمرد لأنهم عاشوا على ذلك.

وبعض الناس الذين امتثلوا للقانون الذي حرم بيع الرقيق لا يزالون يهبون الأرقاء للآخرين لينتفعوا بهم في الخدمة.

وكان الرق منتشراً في البلاد مثلها في ذلك مثل جاراتها مالي والنيجر، بل ربما كانت تلك المنطقة أكثر بلاد العالم المعاصر المعروف في كثرة أعداد الرقيق، وفي الاعتماد عليهم في الخدمة والعمل حتى كان للحرة منهم عدد من الإِماء (العبدات) يقمن على خدمتها ويفعلن لها ما تفعل المرأة في نفسها في بقية العالم.

بل إن أحد العلماء الذين أثق بهم من أهل هذه المنطقة وهو من مالي ومن الذين سكنوا المدينة المنورة رأيته مغضباً في أعقاب تحريم الرق وتحرير الرقيق في المملكة العربية السعودية عام ١٩٨٢ هـ. قال لي: إنه لا يتصور أن تستطيع زوجته أن تقوم بشئون البيت من دون وجود الجواري (العبدات).

فقلت له: إنه يمكنكم أن تبحثوا عن خادمة تقوم بذلك، فقال: إنها لا تستطيع أن تفعل كما تفعل الجواري عندنا، إن الواحدة منهن تدخل الحمام مع زوجتي لتنظف لها نفسها بعد قضاء حاجتها، لأن الزوجة لا تقوم بذلك بنفسها، ولما أبديت له استغرابي، بل تقززي من

ذلك وعجبي منه قال: إن الجارية هي التي تخلل آسنان زوجتي بعد الأكل، لأننا قد اعتدنا أن الزوجة لا تفعل حتى هذه الأمور بنفسها!!

وعدنا إلى الفندق بعد الغروب بقليل.

بيت الشعر في الصالون:

كان لدينا وقت من دون عمل مرسوم في عشاء هذا اليوم فأخذنا الزميل السفير عبد الوهاب الدكوري رفيق الرحلة إلى بيت أحد الأثرياء الموريتانيين من جنوب البلاد، وهو من السودانيين الذين هم سكان مالي القدماء، الذين كانت له امبراطورية عظيمة في التاريخ واسم الأخ الثري عبد الرحمن كمارا.

وقد أخذنا من الفندق بسيارته التي يقودها بنفسه إلى منزله في حي واسع الشوارع مثل سائر مدينة نواكشوط إلا أنه خالٍ من الأرصفة والإنارة.

وظننت أن بيته ليس فيه كهرباء عندما وقفنا عند بابه فليس عليه أضواء، إلا أنني عندما وصلته وجدته مضاءً بالكهرباء وعندما صعدت إلى غرفة الجلوس الواسعة في الطابق هالني سعة الغرفة وأثاثها الفاخر والسجاد الثمين الذي فرشت به.

وكان من أكثر الأشياء طرافة فيها بيت مصغر من بيوت الشعر التي كانوا يسكنونها في الصحراء وهو من الشعر الأسود مثل بيوت الأعراب عندنا تماماً لا يختلف عنها بشيء، وإنما الشيء العظيم من الاختلاف هو في محتويات هذا البيت الموريتاني من الشعر ففيه فراش الزوجين، وفي ركن آخر منه فراش الجارية التي تخدم الزوجة، وفيه



صورة رقم (٨)

نماذج لأدوات صنع الشاي عندهم. وللقوم وهم يشربونه وفيها المنفاخ مثل الموجود عندنا تماماً ولكنهم لا يسمونه المنفاخ رغم كون لغة الأخ عبد الرحمن كمارا وزوجته (منتاتا) هي العربية وزوجته مسنة حجت أكثر من مرة، وهي قوية بالعربية، ومن ذلك أنني عندما سألتها عن هذه الأشياء الموجودة قالت: إنها زينة تريد بذلك ما يسميه عوام المتعلمين عندنا بالديكور. وفي البيت سرج الخيل وهذا هو اسمه عندهم، ورحل البعير الذي نسميه نحن (شداداً) بمعنى آلة شد الرحال ويسمونه هنا (الرحل) وهي تسمية فصيحة.

وفي حيطان المجلس لافتات ولوحات عربية جميلة مختارة وفق ذوق رفيع.

وكانت متعتي كبيرة برؤية هذه الأشياء، والتقط صاحبنا صورة تذكارية فيها - الى جانب المعلومات المهمة عن حياة اخواننا السودانيين الذين يعيشون في جنوب موريتانيا مع أن هذا الأخ ثري يملك عدة عقارات في العاصمة يؤجرها. وأجرة المنازل الحديثة مرتفعة في موريتانيا بسبب قلة المنازل الحديثة فيها، بالنسبة إلى كثرة الطلب عليها.

وكان العشاء محلياً أيضاً اشتمل على تقديم الكسكسو وهو هو المغربي مع بعض الفوارق لأنه صنع وفق طريقة محلية صرفة. وكان اللحم الذي فيه مما يقدم لأهل البيت كثيراً مما استمريناه مثل أحشاء الذبيحة التي اشتهيناها لأننا أجمنا أكل اللحم الخالص من الهبر.

وفي قاعة الجلوس هذه جهاز للتلفزة ملون يبث من المحطة الوطنية، سمعته والمذيعة تبدأ نشرة الأخبار فلم أفرق بينه وبين ما يذاع في أي تلفزة عربية أخرى من حيث اللفظ بالعربية أو الاصطلاحات، ثم استمعت إليه بعد الأخبار فلم ألاحظ فرقاً كبيراً إلا عندما جاء دور الغناء الشعبي المحلي فإذا به يشبه أغاني الجنوب الصحراوي من الجزائر أو الأغاني الصومالية إلا أنه باللهجة الحسانية التي هي اللغة العربية الدارجة في هذه البلاد.

يوم الجمعة ١٤ صفر ١٤٠٤ هـ الموافق ١٨ نوفمبر ١٩٨٣ م:

جلسة أدبية:

أهل موريتانيا أهل أدب وشعر والسبب في ذلك طباعهم الرقيقة وأذواقهم الشفافة، ولذلك يكثر فيهم الشعراء، ولا يكثر الشعر ويروج إلا إذا كان له مستمعون ومعجبون بجيده بطبيعة الحال.

وقد زارني في صباح هذا اليوم جماعة من الإخوة الموريتانيين الكرام، وتبين أن طائفة منهم من الأدباء وبعضهم من الشعراء ومن هؤلاء الشيخ حمداً ولد التاه مدير التوجيه الديني في موريتانيا وعضو المجلس الأعلى العالمي للمساجد عن موريتانيا وقد أنشدنا طائفة من شعره.

وكان حوار طريف في الأدب وبعضه عن الكتاب الذي ألفته عن (الثقلاء) وطبع قبل أربع سنوات فقد كانوا معجبين به، وكانوا ممن ينفرون من الثقلاء ولولا أنني قصرت كتابي على ما ورد عن الثقلاء في الأدب العربي القديم لضمنت أشعارهم الطبعة الثانية من الكتاب.

إلى بوتلميت:

بوتلميت قاعدة منطقة في موريتانيا حرصت على زيارتها لأنها

أول مكان سمعت به من هذه البلاد بعد (شنقيط) الذي كنا لا نعرف غيره منها، وكنا نظن أن كل من جاءنا من تلك المنطقة العربية في غرب إفريقية هو شنقيطي وندعوه بذلك، ولو كان لم يرَ (شنقيط) في حياته أو حتى لو كان بينه وبين تلك المنطقة مساحات هائلة مثل الطوارق الذين يسكنون في شرق مالي وشمالي النيجر. . .

ولكن في عام ١٣٧٠ هـ أي منذ أربع وثلاثين سنة كنت قمت بأول زيارة لي إلى المدينة المنورة، فكان أن تعرفت في حلقات الدروس في المسجد الشريف النبوي على أحد الإخوة (الشناقطة آنذاك)، ويدعى (محمد زين) فأخبرني أنه من بوتلميت، وأنه لا علاقة له بشنقيط كما أن أكثر الإخوة الذين يسمون هنا بالشناقطة هم كذلك، وإنما (شنقيط) بلد واحد يمر به في الغالب من يأتون للحج أو للهجرة إلى الحرمين الشريفين فينتسبون إليه، وإلا فإن بلادهم واسعة شاسعة فيها كثير من الشبه ببلادنا خارج المدن.

ولم يستطع الأخ محمد زين أن يذكر لنا اسماً مميزاً لبلاده فهي في ذلك الوقت ـ قبل الاستقلال لم تكن تسمى عند الناس موريتانيا، وإنما كانوا يسمونها بشنقيط لأنهم لا يجدون لها غير ذلك الإسم.

وقد مرت السنون وعُينت أميناً عاماً للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة فكنا نستقدم الطلاب من موريتانيا وكان منهم طائفة من معهد بوتلميت الديني فكانوا إذا عرفوا مني أنني لدي بعض المعلومات عن (بوتلميت) ومعهدها الذي كان قد درس فيه أخونا محمد زين عجبوا، بل كثر عجبهم لأنهم لا يصادفون أحداً من بلادنا يعرف الكثير من مثل هذه المعلومات.

هذا كان من أسباب حرصي على زيارة (بوتلميت) ويضاف إليه أنني أحب أن أرى طبيعة هذه البلاد الصحراوية الموريتانية من جهة داخلة في اليابسة بعيدة عن تأثير البحر المحيط لأنني قد رأيت مثالاً على تلك المنطقة في قدومنا إلى نواكشوط أمس، إضافة إلى رؤية بلدة أخرى من موريتانيا غير العاصمة، وقد أخبرني موظف المراسم الأخ (بلقرون) أنهم قد أخبروا أهل (بوتلميت) بقدومنا وان غداءنا سيكون عند وجيه من وجهائها بل من وجهاء موريتانيا، هو سليمان ولد سيدي ياه وهو برتبة سفير، وكان عضواً عن موريتانيا في برلمان الاتحاد الفرنسي، وإن انطلاقنا سيكون في التاسعة حيث نصلها بعد ساعتين إلا قليلاً لأن المسافة إليها من العاصمة هي مائة وخمسون كيلاً وستكون صلاة الجمعة هناك ثم بعدها الغداء ثم العودة إلى (نواكشوط).

وانطلقنا في الموعد المحدد في سيارتين وكان معي الأخ المهندس السعودي الذي أشرف على عمارة الجامع الذي بنته المملكة العربية السعودية في نواكشوط عبد الله بن حمود الجنيني والأستاذ محمد علي زين مدير الأوقاف في موريتانيا، وسنقوم بتسليمه إلى الأخوة الموريتانيين غداً إن شاء الله.

انطلقنا جهة الشرق مع أطراف مدينة نواكشوط التي أكثر ما يلفت النظر فيها أن الرمال السافية قد ركبت على أصول الحيطان فيها.

الخط والمعهد العالي:

سرنا مع خط إسفلتي جيد حديث السفلتة قالوا إنه يمتد من العاصمة (نواكشوط) قاصداً مالي، وأنه بذلك سيجعل من ميناء

نواكشوط الذي يجري العمل فيه الآن ميناء لمالي وربما النيجر أيضاً لأن الدولتين كلتيهما (مالي والنيجر) ليس لهما موانىء على البحر.

ألا أن الذي تم في هذا الخط حتى الآن لم يخرج به عن موريتانيا رغم طوله، فقد أنجزوا من سفلتته ألفاً ومائة كيلو متر، ومع ذلك لم يصل إلى مدينة (نعمه) المهمة في موريتانيا. وهذا الخط حديث كما قلت. ولذلك يعتبر من حسنات الاستقلال الذي تمت أكثر المشروعات في ظله حيث لم يقم المستعمر الفرنسي بمشروعات ذات قيمة، إلا ما كان له منه ربح عاجل مثل الذي يتعلق بتعدين الحديد.

ولذلك أيضاً كان بعض الأخوة الموريتانيين يذكرون هذا الخط بفخر واعتزاز، وحق لهم ذلك فالخط قد بني في صحراء جرداء تواجه سفي الرمال، وقلة الحجارة في أكثر الأماكن وبخاصة ما كان منه قريباً من العاصمة.

وهو قرَّب بعيداً من البلاد من أماكن كان الوصول إليه بيسر وراحة حلماً من الأحلام البعيدة في الماضي.

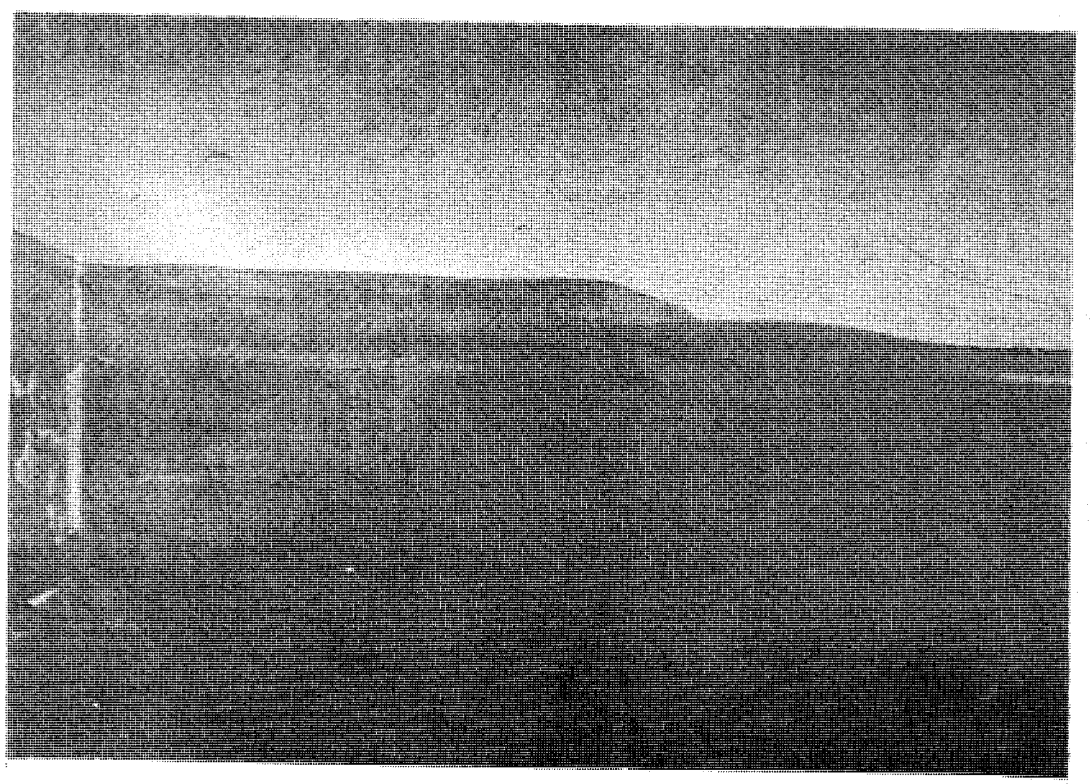
وقد قال لي أحد العلماء الموريتانيين: إن بلادنا انجزت بعد الاستقلال مشروعات عدة ولكن لو لم تنجز إلا مشروعين اثنين وهما هذا الخط الطويل، والمعهد العالي للدراسات الإسلامية لكفى فخراً.

ولا ينبغي أن ننسى هنا أن قومنا الموريتانيين صحراويون أقحاح والصحراويون في طبيعتهم الفخر حتى كان (باب الفخر) من أبواب الشعر العربي الأصيل. ولا يزال الفخر من أهم أغراض الشعر العامي إلا عند المتدينين الورعين.

وقد بدأ العمل في بناء هذا الخط في عام ١٩٧٨ م بمساعدة بعض الدول العربية على هيئة قروض.

الرمال الحمر:

كان الرمل يماشينا إن لم نقل: إننا لم نخرج منه فهو معنا منذ أن كنا في ضواحي العاصمة حتى انطلقت السيارة بأقصى سرعتها في هذا الخط الإسفلتي الصحراوي الخالي من العوائق التي تعوق امتداد البصر. لذلك يسرع السائق سرعة خشيت مغبتها كما كان عليه الأمر مع سائق الأمس.



الرمال الحمر قرب العاصمة

بيوت الخيام:

ومثلما استمر الرمل استمرت بيوت الخيام في الأماكن المنخفضة إن صح التعبير، فالبيوت هذه كما سبق تعريفها هي غرف منفردة، أو على هيئة غرف منفردة شبيهة بالخيام البيض، على أن الخيام نفسها قد كثر وجودها عندما فارقنا الأماكن القريبة من العاصمة، وفي هذه المنطقة كان السكان الذين نراهم هم (الشناقطة) أو الموريتانيون الذين نعرفهم في المملكة العربية السعودية بلونهم الأبيض أو الأسمر الخفيف السمرة، وبالملابس الفضاضة المتسعة.

ومن الملفت للنظر هنا أن ملابسهم نظيفة لا تلاحظ عليها أي وسخ رغم كونهم في الصحراء مع ما يعني ذلك من قلة الماء وسفي التراب.

ومر الطريق بمركز للشرطة يوقف السيارات العابرة، فأخبروهم بصفتنا فسمحوا لنا بالسير دون سؤال، وقد أصبح الطريق في كثبان رملية متطامنة ذكرتني ببلادنا القصيم وبخاصة تلك الرمال التي تسفوها الرياح فتركب جزءاً من الخط الإسفلتي.

ومع ذلك فإن آثار الصيانة والعناية بالطريق جيدة.

الأمم المتحدة وتثبيت الرمال:

مررنا بما يشبه الحظيرة من الأعواد مبتدئة من رأس كثيب من الرمل ومنحدرة مع انحداره فسألتهم عنها فقالوا: إنها لتثبيت الرمال، وإن خبراء الأمم المتحدة هم الذين وضعوها.

ونظراً إلى أنني من أهل القصيم الذين يكثر الرمل في بلادهم فقد كدت أشارك الرمل الذي ركب حظيرتهم سخريته من هذه الاستهانة بالرمل، بل هذه السذاجة في التفكير، فالرمل السافي لا يقهر بحظيرة مكونة من أعواد متراصة مثبت بعضها ببعض بما يشبه الحبال لا سيما إذا كانت المنطقة كلها بحراً من الرمال كهذه المنطقة، إذ سرعان ما يغمرها الرمل ويتجاوزها فتضيع فيه كما رأيناه اليوم. وبخاصة أنهم جعلوها صاعدة بصعود الكثيب، وكثبان الرمال السافية أي المنهالة التي ليس فيها شجر يمنع انهيالها هى سريعة التنقل والجريان مع الرياح.

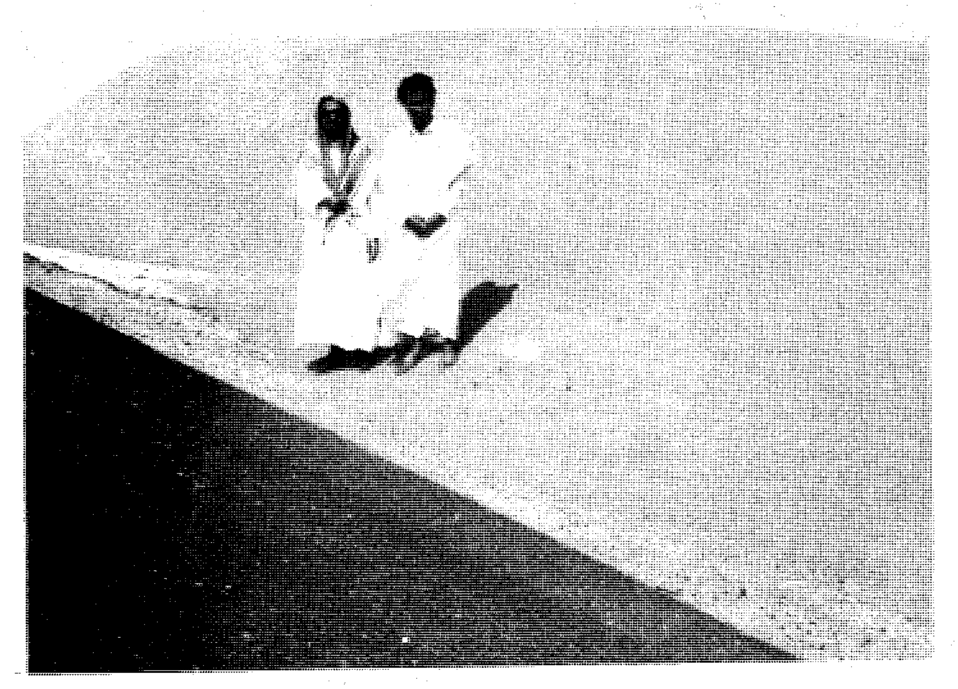
ولم نكن نفعل ذلك في بلادنا لعلمنا بعدم جدواه، وإنما كان قومنا يغرسون شجر الأثل الذي هو صحراوي يصبر على لفح السموم وقلة الماء القريب من سطح الأرض.

ألا أننا كنا نعرف أن الأثل لا بد له من أن يسقى أول ما يغرس لمدة لا تقل عن ستة أشهر ولا بد من أن يكون غرسه في أرض ذات مياه جوفية تستطيع جذوره أن تصلها.

ولا أدري عن المياه الجوفية في هذه الصحراء الموريتانية. وظني أنها بعيدة لأنني لم أرَ أثراً لزراعة واسعة فيها، وإنما كل ما فيها من شيء أخضر على قلته هو من الماء الذي يذهب إلى العاصمة.

ويزداد شبه هذه المنطقة بالمناطق الصحراوية في بلادنا قبل عشرين سنة في كونها قليلة السكان، والسكان الذين فيها يغلب على حياتهم النمط الظاهر لعدم الاستقرار لأنهم ليسوا في قرى متلاصقة البيوت متصلة العمارة فيها المرافق العامة من آبار المياه أو بساتين

الزراعة. وهذا أمر طبيعي لأن كثيراً من الموجودين في بيوت منفردة إنما ألجأهم إلى ذلك الجدب، وقلة الأعشاب لمواشيهم في مناطق الرعي وإلا لكانوا في أماكن غيرها.



فوق كثبان الرمال المنهالة في موريتانيا

والمنطقة كما قلنا منطقة رملية كلها لذلك لم يمر الطريق حتى الآن فوق جسر على وادٍ، لأن الوديان التي تجري بالمياه لا توجد في المناطق الرملية الخالية من الجبال، والأماكن المرتفعة الصلبة.

وتوالي الجدب بل المحل ظاهر في هذه المنطقة في عدم وجود أعشاب ولا حتى من الأعشاب الجافة التي قد تخلفت من أعوام سابقة مطيرة، لأن الجدب قد تتابع عليهم. وتتابعت سنوه التي وصفها بعض

أدبائهم اليوم بأنها سنون عجاف كسني يوسف، أو أشد.

لما نسجتها من جنوب وشمأل:

هذا شطر من بيت لأمرىء القيس في معلقته وهو:

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها　　لما نسجتها من جنوب وشمأل

معناه أن الرمال والشوائب لا تكون فيها لأنه إذا سفتها الريح الشمالية مثلاً جاءت بعدها الجنوبية فأزالت ذلك، وهكذا.

وقد ذكرت ذلك الآن لأننا كنا نسير والريح تسفي الرمل الناعم فوق الخط، ولكنه لا يلبث حين تلامسه عجلات السيارة المسرعة أن يتطاير فتبعده الريح عن الطريق ثم تأتي سيارة مسرعة أخرى من جهة معاكسة فتطيره أيضاً، وهكذا.

وادي الناقة

وليس أولى من الناقة في هذا الجو الصحراوي من أن يسمى باسمها موضع أو مواضع، و (وادي الناقة) قرية أو مجتمع قروي يبعد ٤٥ كيلو متراً عن العاصمة (نواكشوط)، وليس فيه ماء وإنما تمر به الأنابيب التي سحبوها من (إيديني) إلى العاصمة فيأخذ منها النصيب الضروري للشرب والاستعمال لا للزراعة.

وقد سألتهم عن الآبار الإرتوازية، وعما إذا كانوا قد جربوها هنا، فقالوا: إن الآبار المعتادة بعيدة القعر وماؤها ملح.. ولذلك أصبح عند الناس انطباع بأن المياه الجوفية ملحة. فقلت: هذا قد

يكون صحيحاً بالنسبة لما قرب من البحر وبالنسبة لما كان من المياه الجوفية قريباً قرباً نسبياً من سطح الأرض، ولكنه إذا تعمق الحافرون أكثر فقد يجدون مياهاً صالحة للشرب أو للزراعة كما فعلنا نحن في بلادنا حيث نحفر الآبار (الإرتوازية) في الداخل إلى مسافات تصل في بعض الأحيان إلى ستمائة متر فينبثق الماء منها عذباً نميرا وإن كان حاراً لشدة حرارة باطن الأرض في تلك الأعماق، فيجمع في برك كبيرة حتى يبرد ثم يرسل إلى المزارع أو إلى أنابيب الاستهلاك للبيوت فذكروا أنهم لم يجربوا هذا لقلة الإمكانات المطلوبة.

ولا ينبغي أن يجعلنا لفظ (وادي) نسرع ونتساءل عما إذا كان فيه مياه، لأن الوادي هنا لغوي. وليس حقيقياً، فالوادي في اللغة قد يأتي بمعنى الموضع المنخفض المستطيل من الأرض، وهذا له نظير ذكرته في كتابي (معجم بلاد القصيم) ولا محل لذكره هنا.

ويكفي أن نتذكر هنا أن (وادي الناقة)، يقع في منطقة رملية تشبه إلى حد كبير منطقة الخبوب في القصيم إذ هو حبال من الرمل بيتها فرج منخفضة مستطيلة إلا أنه ليس فيها مزارع كما يكون في القصيم، والغريب أن امتدادها من الجنوب إلى الشمال مثلما عليه الحال بالنسبة إلى رمال القصيم.

إيـديـنـي:

و (إيديني) هذا موضع هام جداً فمنه استنبطوا المياه الجوفية وأسالوها إلى العاصمة (نواكشوط) وسعدت بهذه المياه أيضاً بعض الأماكن التي مرت بها أنابيبه.

وتبعد عن (نواكشوط) ثمانين كيلو متراً فيما قالوه لنا.

وقد رأيناها على البعد، ولم نتوقف فيها لأنها ليست المقصودة برحلتنا، وقد استمر المنظر الصحراوي الذي يشبه منظر المناطق الرملية في صحرائنا العربية في وقت الصيف حيث لا يكون هناك عشب ولا أشجار خضر، وحتى المواشي لا يكاد المرء يلمح منها شيئاً هنا، لأنهم أرسلوها بعيداً جهة الجنوب بحثاً عن المرعى حتى في داخل مالي والسنغال المجاورتين كما سبق ذكره.

وفي هذا المكان رأينا بيوت الأعراب الحقيقية وهي البيوت السود من الشعر وليست الخيام البيض التي أصبحت هي السائدة في هذه الصحراء في السنين الأخيرة.

وهذه البيوت (الشعرية) السوداء أكثرها إن لم يكن كلها لها عمود واحد فقط وليست كما هي في الصحراء عندنا حيث يتباهى الوجهاء والشيوخ من الأعراب في عدد أعمدة بيوتهم فيقولون: فلان عنده بيت مخومس إذا كان ذا أعمدة خمسة أو نحو ذلك. مع أن البيوت (الموريتانية) هذه وإن تكن ذات عمود واحد فإنها كما رأيتها من السيارة لا بأس بسعتها.

ولم نتوقف عندها على أمل أن نفعل ذلك في العودة، غير أننا لم نستطع ذلك لضيق الوقت، ولأنه لا بد من انفاق بعض الوقت عندها لأنها ليست على الخط الإسفلتي مباشرة ولا بد من السير إليها على الأقدام، لأن الأرض رملية لا تقوى السيارة على اجتيازها. وواصلنا السير واشتد السافي أي الرمل الدقيق الذي تطيره الريح في الطريق حتى صار على البعد يرى فوق الطريق وكأنه السراب، وذكرت مثيله

بالضبط في صحرائنا العربية وبخاصة إذا كان ذلك بعد الظهر.

ولم يكن هذا وحده الذي ذكرني منظره هنا ببلادي وإنما ذلك أيضاً في منظر كنت أراه في القديم ولكنني أصبحت لا أراه الآن لأن نوع الطرق ووجود مواقف واستراحات فيها قد قلل منه، ألا وهو منظر سائق سيارة شحن كبيرة قد أوقفها على جانب الطريق تماماً بحيث لم تكد تخرج كلها عنه وذلك لأنه إذا خرج من الطريق في هذه الأرض الرملية (غرزت) السيارة وجلس بالقرب منها يطبخ غداءه على الحطب.

وقد استمر السير في الطريق في هذه المنطقة الرملية الواسعة وقال لي مرافقونا: إن الطريق يستمر لمسافة طويلة في أرض رملية كهذه، وتلفتُّ فلم أرَ حولي كما لم أرَ فيما مررت به جبالاً، ولا تلالاً جبلية فسألتهم عن الحجارة اللازمة لفرش الطريق قبل صب الإسمنت عليها من أين أتوا بها؟ فقالوا: إنهم نقلوها من مناطق بعيدة، فقلت: هذا أيضاً مما جعل مهمة رصف الطريق أكثر صعوبة، وأعظم نفقة، كما أن الجو الصحراوي المشهور بجفافه، وشدة حرارة الشمس في الصيف فيه، وكثرة الرمال السافية تجعل صيانة الطريق أعظم مشقة وأكثر مؤونة.

وقال لي الأخ المهندس السعودي (عبد الله بن حمود الجنيني): إن الناس اعتادوا هنا في الأبنية المعتادة على أن يضعوا مع الإسمنت نوعاً من المحار قوياً يستخرج من شواطىء المحيط بدلاً من الحصى الصغار لأنه أيسر مؤونة، وأرخص سعراً وهو في الوقت نفسه قوي حسب مواصفات أقرتها هيئات عاملة موثوق بها في هذه البلاد، وصدقتها بعض المختبرات في الخارج.

بعيدة الماء:

كانت السيارة تسير مسرعة في هذا البحر الرملي الذي ترتفع رماله وتنخفض، والطريق يتبعها بحيث ينخفض إذا انخفضت ويرتفع إذا ارتفعت والسيارة فوقه تفعل فعله فكأنها السفينة في خضم اليم عندما ترفعها الأمواج الكَسْلَىٰ ثم تخفضها.

ولا أدري ما الذي جعلني أذكر حالة الدهناء وهي الأرض الرملية الخالصة الخالية من الوديان بل حتى الآبار، والتي قال فيها العرب الأقدمون في أساطيرهم إن لقمان بن عاد وهو من أقوى الناس بزعمهم قد استطاع أن يستنبط الماء في كل أرض العرب التي نزل فيها إلا الدهناء وشقيقتها (الصمان) فإنهما أعجزتاه، والصمان ليست أرضاً رملية ولكنها لا آبار فيها، وإنما في بعضه (دحول) - جمع دحل بالحاء المهملة - وهو مجتمع للماء تحت الأرض على هيئة سرداب مظلم داخل الأرض يوصل إلى منقع للماء فيه لا يهتدي إليه في ظلام الأرض إلا خبير جريء.

وبذلك قالت العامة في بلادنا لمن يظهر أنه سيعطي ولكنه لا يفعل ذلك - أو الذي لا يبوح بالسر أبداً وإن كان يعرض بذلك: «مثل الدهنـا قريبة الثرى، بعيدة الماء»، والثرى هو التراب الندي.

مع أن هذه الأرض الموريتانية العربية الغربية في جوفها من الماء ما استخرجوا منه ما أروى عطش العاصمة، وما دونها وفيها من الأناسي المستقرين ما لا يوجد مثله في الدهناء.

ومن الدليل على ذلك أنني أرى الآن جماعة يمشون بملابسهم الفضفاضة النظيفة من دون أن أرى عندهم قرية إلا أن مجرد رؤيتهم هنا

يسيرون على أقدامهم مما يدل على وجود منازل غير بعيدة.

المقابلة التي غيرت البرنامج:

التقينا سيارة نزل منها رجلان أحدهما أبيض يلبس ملابس بيضاء نظيفة فسلم بأدب وقدموه لنا بأنه (محمد بن هارون)، وقد انتحى بموظف المراسم وتكلم معه بكلام لم نسمعه، ثم اشترك في الحديث زميلي السفير عبد الوهاب الدكوري.

ثم جاؤوا إليّ وهو معهم وقالوا: إن الأخ الوجيه (سليمان ولد الشيخ سيدي ياه) الذي كان من المفترض أن يكون في استقبالنا وأن يصحبنا في (بو تلميت) هو غائب عنها، ولم يستطيعوا أن يتصلوا به فيخبروه بأمرنا لأنه في البادية. وأنهم بالنيابة عنه قد أعدوا غداءنا ولكنهم يخبروننا بغيابه.

وقال الأخ الدكوري: إن زيارة (بوتلميت) بدون وجوده لا سيما وأنه هو الذي كان من المفترض أن يكون مرافقنا غير مناسبة. وقد يكون في نفسه شيء من ذلك... فقلت لهم: لقد شفيت النفس من رؤية هذه الناحية من البلاد، ويمكن لنا فيما تبقى من الوقت أن نزور إحدى القرى القريبة ثم نعود بعد ذلك إلى نواكشوط.

فقالوا جميعاً: إذاً نواصل سيرنا إلى (محضرة) قريبة هنا، ثم فسروا المحضرة بأنها مدرسة على الطراز القديم.

بئر الميمون:

هذه البئر ميمونة عليّ، فقد شاهدت عندها شيئين سارين،

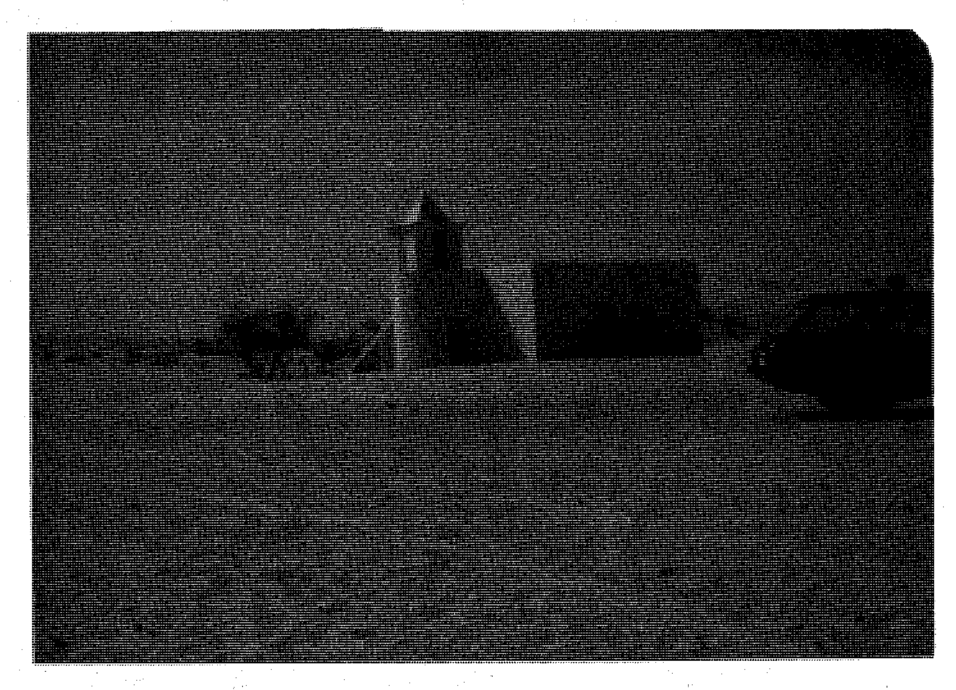
أولهما سرور لمجرد العلم والمعرفة، وثانيهما: سرور للنفع العام للمسلمين.



الاستقاء من البئر في صحراء موريتانيا

فعلى بعد تسعين كليو متراً من نواكشوط جهة الشرق وقفنا لرؤية بئر وحيدة في هذه الصحراء، رأيت عندها أعراباً يسقون الإبل معها حيرانها - جمع حوار - وهو ولد الناقة، وقد تجمعت الإبل حول البئر حتى تكاد تضايق السقاة تتعجل الماء لأنها عطشى كما تفعل في صحرائنا في الصيف.

إلا أن الفارق كان واضحاً بين ما هو مألوف ومعتاد في بلادنا في أكثر أبارها وما هو حاصل هنا الآن في طريقة إخراج الماء فعندنا في

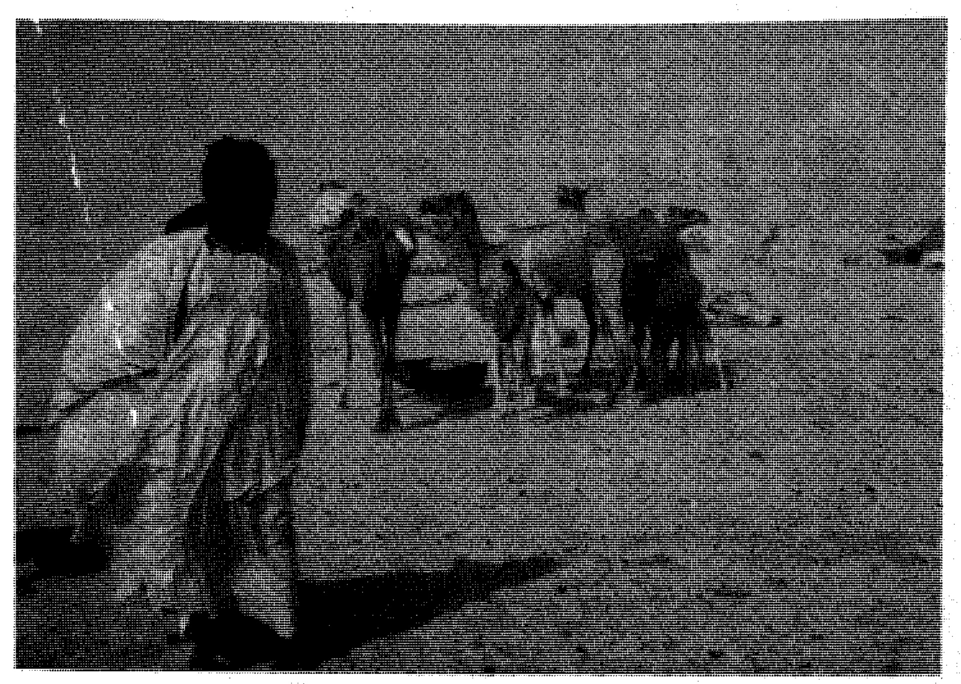


مسجد محضرة الميمون

الآبار المعتادة أي التي عمق مياهها غير بعيد، يخرج الرجال الماء من البئر بالدلاء - جمع دلو - يجذبونه على البكرة بأيديهم وإذا كان الدلو كبيراً تعاون اثنان على إخراجه من البئر. أما هذه البئر الموريتانية فإنها عميقة، ولذلك جعلوا الرشاء على ثلاثة من الحمير يسوقها رجل، أو لنقل باللغة الفصحى يصدرها ويوردها رجل ويساعدها على حمل الدلو في حالة الصدر. فإذا ما انتهى أمد الرشاء وخرج الدلو من البئر تبادرته جوارٍ سود فأخذنه وأفرغن ماءه في الحوض.

والإستقاءُ على الدواب عندنا يكون من الآبار البعيدة القعر جداً، ويسميها الأعراب الطوال: جمع طويلة، وهي البئر الطويلة الرشاء. كناية عن عمقها الشديد، وسألت مرافقنا الأخ الكريم محمد وله سيدي

أحمد بلقرون عن القبيلة التي ينتمي إليها؟ فأجاب: إنها الترارزة، فقلت: أنت إذاً. . . وسكتُ أحب أن أعرف المفرد من هذه التسمية فقال: ترّوزي.



الإبل وصاحبها في صحراء موريتانيا

والقوم الذين نراهم الآن هم من قبيلة (تاقونان) غير أن عدد الجواري والعبيد السود الموجودين لدى البئر أكثر من الأسياد البيض، وعبيدهم وجواريهم سود إلاّ أن الخصائص الزنجية ليست الغالبة في ملامحهم.

وعندما شفيت النفس من رؤيتهم، والتقطت لهم عدة صور ذهبت لأنظر إلى عمق البئر فوجدتها عميقة جداً، وسألناهم عن عمقها فأجابت الجواري بالحرف الواحد (أكثر من عشرين قامة)، والمراد

بالقامة قامة الرجل، أي: طول الرجل المتوسط.

وهذا كان القياس الشائع عند الأعراب في بلادنا لعمق الآبار.

وعشرون قامة تساوي خمسة وثلاثين متراً تقريباً، ولكنني أظنها أكثر من ذلك عمقاً.



تذكارية مع أرباب الإبل عند بئر الميمون

كنا نتحدث إليهم والريح تحمل السافي أي الرمل الدقيق فيدخل منافذ الوجه من دون استئذان، لذلك ضاقت العيون، وعلت الألثمة ـ جمع لثام ـ على الأفواه، تماماً مثلما يصنع الأعرابي في بلادنا حين يتلطم ـ أي يتلثم ـ اتقاء لدخول الغبار أو الهواء إلى فمه.

المحضـــرة:

المحضرة هي المدرسة التقليدية أي القديمة التي تقام في موارد المياه، وفي مواضع استقرار السكان في الصيف لفترة معينة من الوقت.

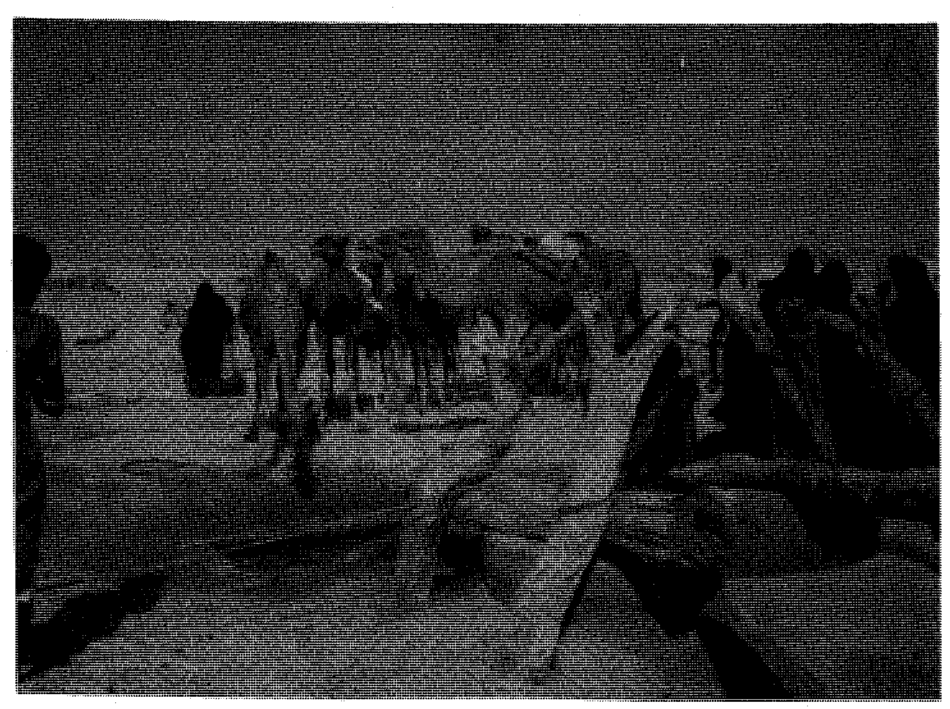
واشتقاقها إما أن يكون من الحضور لأن الطلاب يحضرون فيها إلى الشيخ، وهذا ليس بذاك وإما أن يكون من التحضر، ضد التبدي، لأنها لا تكون إلاّ في مكان استقرار بخلاف رعي المواشي الذي هو الغالب على حياتهم، فإنه يكون في التنقل، بل طبيعته أن يكون كذلك دائماً. وهذا عندي أصح من الأول، وإن كان اشتقاق الكلمتين كلتيهما من مادة (حضر) في الأصل.

هذا ما يتعلق (بالمحضرة) في اشتقاق التسمية.

وأما المحضرة بالفعل فإنها أعظم وأجل من ذلك.

إنها المدرسة العظيمة التي أخرجت فطاحل العلماء، والحفاظ الذين تفتخر بهم موريتانيا، بل يفتخر بهم العرب، فمنهم أعلام في اللغة مثل الشيخ محمد بن التلاميذ التركزي الشنقيطي، وفي التفسير والأصول مثل زميلنا في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي صاحب أضواء البيان وغيرهم من العشرات بل المئات من العلماء الذين طبق صيتهم الآفاق، وخلفوا من تلاميذهم ومريديهم من هم في مصاف كبار العلماء في العالم الإسلامي.

وهذه المحاضر تكون متنقلة بمعنى أنها تكون في موضع تستقر فيه ثم تنتقل إلى موضع آخر تستقر فيه تبعاً لاستقرار شيخها الذي يتبعه تلامذته.



الإبل وأهلها عند بئر الميمون

انطلقنا من عند بئر الميمون فسرنا مسافة حوالي نصف كيلو متر لنصل إلى (محضرة الميمون)، ووجدنا المحضرة قد بني لها بناء من لبن الإسمنت وغير بعيد منه مسجد أبيض الطلاء. وعندما أقبلنا ونحن في سيارتين ووجود السيارات هنا محدود كان باب إحدى الغرفتين مزدحماً بل إنه فاض بالمتفرجات اللائي خرجن من إحدى الغرف وكلهن من البنات والنساء الشابات اللائي تجاوزن سن المراهقة، وهن يدرسن هنا في هذه المحضرة علوم الدين من الفقه والأصول وعلوم اللغة ومنها الشعر العربي الفصيح بحيث يصبح في المعتاد بعضهن من الشاعرات المجيدات لقرض الشعر باللغة الفصحى التي لا تشوبها عامية.

كما فاض باب الغرفة الأخرى بجماعة من الطلاب من الذكور يتطلعون لرؤية ضيوفهم القادمين من المملكة العربية السعودية، فقد كان بعض الأخوة سبقنا لإخبارهم بوصولنا.

الشيخ تاه:

كان الشيخ الجليل الذي هو شيخ (المحضرة) أي أستاذ الجميع في مقدمة المستقبلين فسألتهم عن اسمه؟ فأجابوا جميعاً: الشيخ تاه.

ولما كانت كلمة (تاه) غريبة عليّ وبخاصة إذا كنت أتكلم عن شيخ ضليع في العربية فقد سألته بعفوية عن معنى الكلمة فقال وقالوا ما كنت سمعته من قبل وأنسيته: إن هذا الشيخ كانت أول كلمة نطق بها وهو صغير كلمة (تاه) فسمي بذلك. وهذه عادة للموريتانيين أن يلقبوا الرجل بأول كلمة ينطق بها في صغره، ومن ذلك اسم والد الرئيس الموريتاني السابق (المختار ولد (دادا). ووالد زميلنا في الجامعة الإسلامية في المدينة النورة صاحب أضواء البيان، في تفسير القرآن بالقرآن (محمد الأمين بن (ادو). وهكذا.

وإلا فإن الإسم الحقيقي يكون غير هذا، ومن ذلك أن هذا الشيخ الجليل الذي غلب عليه لقب (تاه) اسمه الحقيقي (مختار بن يَحْظَىٰ) ويحظى على وزن يحيى وهو من التسمية بالفعل التي هي كثيرة عند العرب الفصحاء القدماء، وقل استعمالها عندنا مثل يزيد ويشكر ويعرب.

في داخل التاريخ:

ليس هذا العنوان كبيراً بالنسبة إلى ما شعرت به وأنا أدخل إلى

قاعة الدرس في المحضرة، ذلك بأنه أعادني إلى صباي في مشهد الألواح الخشبية التي يحملها الطلاب وقد كتبوا عليها دروسهم، وكنت أفعل ذلك في أول عهدي بتعلم القراءة والكتابة عندما أدخلني والدي مدرسة أو على الأصح (كُتّاباً) ـ بتشديد التاء ـ مجاوراً لبيتنا في عام ١٣٥٢ هـ، أي منذ اثنتين وخمسين سنة. وبعد ذلك بثلاث سنوات افتتحت في بلدتنا بريدة مدرسة اعتبرت حديثة لأن صاحبها تعلم في الزبير أو في ناحية من نواحي العراق، ثم افتتح هذه المدرسة، ولم يكن يستعمل الألواح بل كان يستعمل الدفاتر، والأوراق رغم غلاء قيمتها، لذلك لم يكن يدخلها إلا الموسرون القادرون، أو الميسورون، وكان والدي من هؤلاء الميسورين إضافة إلى أنني أول ولد له يدخل المدرسة.

والمشهد الثاني الذي شدني إلى الماضي هو مشهد الطلاب المتقدمين الذين كتبوا دروسهم على أوراق وقد استنسخوا الدروس من مخطوط كان لأحدهم أروني إياه لأنه لم يكن متيسراً لهم أن يحصلوا على نسخ مطبوعة من ذلك الكتاب. وهذا ما كنت أفعله في بداية عهدي بطلب العلم في جامع مدينة بريدة عام ١٣٦٣ هـ.

وكنا مثلهم نحفظ المتن في الدرس حفظاً ونتلقى ما يقوله الشيخ شرحاً وإيضاحاً لذلك المتن، بل المتون فقد يكون الدرس في مجلس واحد في أكثر من فن واحد من فنون العلم كالفرائض والنحو، أو الفقه والحديث، أما الدروس التي كنا نتلقاها في اليوم الواحد فكانت كثيرة تنوء بها فهوم طلبة الجامعات وعقولهم، لأنها على كثرتها منوعة مركزة، ولم تكن لنا عطلة بطبيعة الحال، ولم نكن نعرف التخلي عن الدرس في أي فصل من فصول السنة ما عدا المواسم الدينية مثل أيام الحج، وشهر رمضان.

ولطالما سمعت بل ورايت من حفظ الإخوة الموريتانيين لفنون العلم وبخاصة ما كان منها منظوماً فكنت أعجب لذلك أشد العجب، ورأيت فعل هؤلاء الطلبة اليوم وتذكرهم لدروسهم حتى لقد قدموا لنا جماعة منهم ممن يحفظون ألفية ابن مالك. بل إن بعضهم قالوا على مشهد ومسمع من الجميع إنهم يحفظون معها زيادات (ابن بونة) وهو عالم موريتاني من هؤلاء القوم زاد على ألفية ابن مالك في النحو ما وازى مثلها ونصفاً من رجز سهل قوي بالنسبة إلى نظم ابن مالك.

لقد عرفتِ السبب في حفظهم، عندما رأيت فعلهم. فكأنما كانوا ينسخون الدرس من الكتاب ويودعونه صدورهم، حتى إذا وثقوا من حفظها للوديعة وقلما تخونهم عادوا يحفظون فيها درساً آخر وهكذا.

والشيخ يتعاهدهم بالشرح والفهم، وزملاؤهم يحيون العلم في صدورهم بالمذاكرة والبحث.

يتلثم عندما يقرأ:

أخبرونا أن الطلبة في هذه (المحضرة) لا يقتصرون على حفظ المتون الشهيرة في النحو والصرف أو الفقه والأصول مثلاً، وإنما يحفظون كتباً أخرى وقصائد وأراجيز علمية غيرها إضافة إليها. مثل طالب قدموه لنا وأمره الشيخ أن يقرأ ما نشاء من قصيدة (المقصور والممدود) لابن مالك النحوي فأدار الطالب لثامه على فمه وابتدأ يقرأ.

وعندما تلثم سألتهم عن السبب في ذلك؟ فقالوا: إنه يستحيي أن يقرأ أمامنا وهو حاسر اللثام. فذكرت ما كنت أنسيته أيضاً وهو أنني

عندما كنت في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة كان بعض الطلبة من البلاد التي يسكنها الطوارق إذا أراد أن يكلمني ستر فمه بأن وضع عليه طرف ثوبه أو عمامته. وتلك عادة لهم قديمة اختلف في تعليلها وذكرت شيئاً من أمرها في كتاب (في ربوع السودان الغربي) عند الكلام على مدينة (تنبكتو) في شرقي مالي ـ حيث توجد طوائف من الملثمين في هذه المدينة وما حولها من البربر الذين يؤلف اللثام جزءاً هاماً من عاداتهم التي لا ينفكون متمسكين بها، ومن العرب والسودانيين (الغربيين) الذين يتلثمون أيضاً، اتقاءً لرمل الصحراء وغبارها، فسألت الشيخ عن هذا الطالب المجد الذي يحفظ قصيدة ابن مالك في المقصور والممدود ومع ذلك يتلثم أريد أن أعرف منه إلى أي قبيلة ينتمي. فقال: إنه من (عرب النقاب) صنهاجة.

وهذا تعبير لطيف وإلا فصنهاجة عروبتها بعيدة يقولون: إنها من عهد تبع ملك اليمن، ولكنها قريبة من اللغة العربية وعلومها وآدابها، بل هي أقرب إلى العروبة ـ من هذه الناحية ـ من كثير من العرب ذوي العروبة القريبة.

ويبلغ عدد الطلبة الذين رأيتهم عند الشيخ (التاه) ما بين أربعين وخمسين.

الشعر والشاعرات:

قلت للشيخ وللإخوة الحاضرين: إن الشعر فيكم أيها الموريتانيون كثير، بل إنه في بعضكم طبيعة غير متكلفة، فهل فيكم معشر الحاضرين شاعر؟

فأجابوا: نعم، فينا شعراء، بل في التلميذات شاعرات، ولم تكن التلميذات حاضرات بطبيعة الحال، ربما كان بسبب معرفتهم بطبيعة الحياة في بلاد ضيوفهم، وإلا فقد رأيتهن قد تجمهرن عند باب إحدى الغرف عندما وصلنا كما ذكرت.

كما أن الحجاب بمعنى تغطية الوجه غير معروف في نساء موريتانيا، فهن سافرات الوجوه إلا أنهن غير متبرجات، فلا يظهر من المرأة غير وجهها وكفيها ولذلك لا تسير حاسرة الرأس، والمسموع عن نساء موريتانيا أنهن رغم جلوسهن إلى الرجال في بعض الأحوال فإن أقصى ما يطمح إليه الفتى من الفتاة التي تعجبه أن تسمح له بأن يمس طرف كمه كمها.

هذا ما سمعنا عنهن وهو من طرائف أفعالهم.

وقد ذكروا لنا أسماء عدد من الفضليات ـ جمع فُضْلَىٰ ـ اللاتي ألفن في العلوم الصعبة ومنهن خديجة العاقل التي كتبت طرة على منظومة السُّلّم في علم المنطق.

أما الشاعرات فإنه لا مجال لسماع شعرهن، وأما الشعراء فقد قلت لهم: إنني أريد شعراً قيل في هذه (المحضرة) الكريمة التي حمدت الله تعالى وشكرته على أن وفقني لزيارتها حتى أرى أنموذجاً من هذه المحاضن العلمية، بل الجامعات العلمية لأن العلماء الكبار الذين تخرجوا فيها هم الذين أصبحوا حتى في بلاد كثيرة خارج موريتانيا يفيدون طلاب الجامعات، بل طلاب الدراسات العليا الذين أقصى ما يطمحون إليه في ميدان الشهادات هي العالمية العليا (الدكتوراه)، وأذكر منهم في هذه المناسبة من زاملتهم في الجامعة

الإسلامية في المدينة المنورة وهم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي صاحب أضواء البيان رحمه الله والشيخ محمد المختار بن مزيد المدرس في الجامعة الإسلامية أمد الله في حياته والشيخ حماد بن محمد الأنصاري رئيس قسم الحديث في الدراسات العليا في الجامعة الإسلامية في المدينة وهو وان لم يكن موريتانيا فإنه من أهل الصحراء نفسها التي تمتد لتشمل موريتانيا ومالي وهو من أهل السوق المشهورين بالحفظ والفهم ونقل المكتبات التي تضم المجلدات على ظهور الإبل كلما نزلوا أو رحلوا.

فأسرع أحدهم ينشد أبياتاً في هذه المحضرة ومنها:

للّـه در عصابـة (الميمـون)	حمدت عواقب رأيها الميمون
قوم بأبصار البصائر قد رأوا	ما لا يراه سواهُمُ بعيون
نظموا الأمور على المرؤة والتقى	وإقامة المفروض والمسنون
وتيقظ لمواقع العلياء في	إبائها بمحلها المظنون

* * *

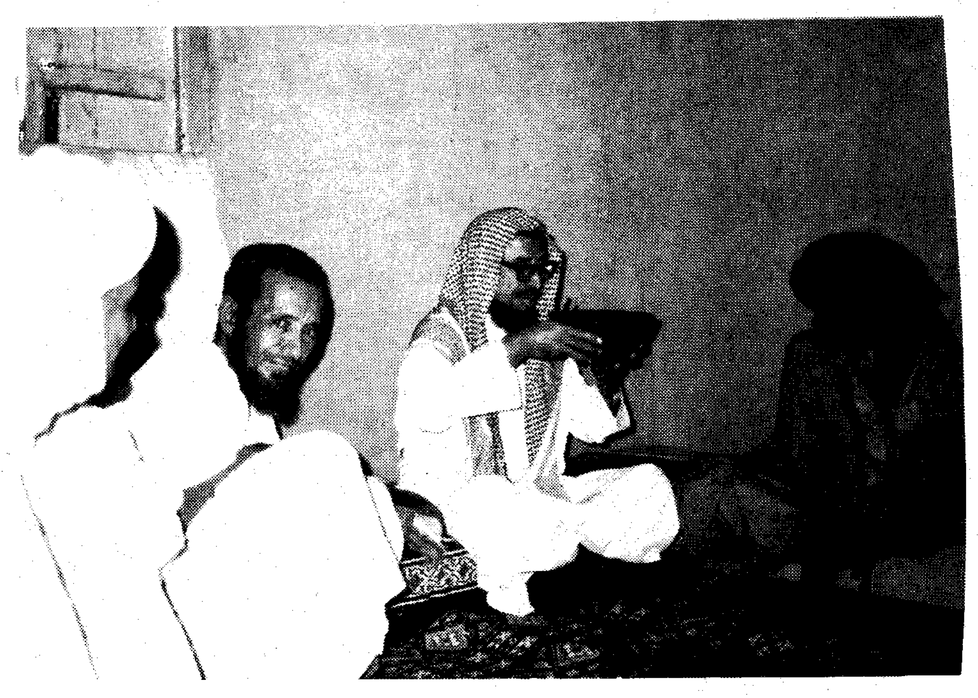
ثم الصلاة على النبي وآله	خير الأنام، وسيد الكونين

فسألته: أهذا من شعرك؟ فقال: لا، ولكنه شعر قيل في هذه المحضرة (محضرة الميمون) كما طلبت، وقد عرفت بعد ذلك أنه من شعر محمد بن أحمد بن صلاح.

الضيافة المناسبة:

وكانت الضيافة المناسبة في هذا الجو (الأعرابي) قدحاً كبيراً من الخشب فيه شنين وهو اللبن الذي شيب ـ أي خلط ـ بماء كثير،

والموريتانيون يسمونه (شنينا) مثلما نسميه. وأعتقد أنه من حليب النوق، لأنها هي التي رأيتها أكثر من غيرها في هذه البقعة.



المؤلف معه قدح اللبن داخل محضرة الميمون وعلى يساره الشيخ

ولم أكن أرغب في شرب اللبن، فأخذ الإخوة الموريتانيون ومعهم زميلي الشيخ الدكوري يتعاقبون تناول القدح الخشبي، والشرب منه حتى نفد أو كاد.

وضيافتي أنا هي سماع العلم وبخاصة (علم النحو) وهذا ما حظيت به إذ أخذ الشيخ في درس من ألفية ابن مالك فأحضروا الألفية في نسخة مخطوطة عليها الطرة والحواشي وهي إيضاحات توضع في

طرر الصحائف في الكتب القديمة، ونقلتها عنها الكتب المطبوعة القديمة.

وقد أفاض الشيخ في الشرح فأعجبني وأطربني لأنه جاء بعلم كثير، ولأنه على الطريقة التي تلقيت أنا بها العام على مشايخي في المساجد، فليس هناك سبورة، ولا وسائل إيضاح، إلاَّ ما كان من تعابير وجه الشيخ الذي يسمّر التلامذة فيه عيونهم فيكون لهم بمثابة السبورة. وأما وسائل الإيضاح فإنها وسائل لفظية عليهم أن يحفظوها فيلفظوها، ثم إنهم يعيدون حفظها والتلفظ بها حتى تثبت في صدورهم.

ثم جاء بعد الشنين الذي هو ضيافة أعرابية بضيافة حضرية وهي الشاي الأخضر المركز المطيب بالنعناع ويسمونه هنا (الأتاي) أخذاً في الأصل من كلمة (تي) الفرنسية، والإنكليزية، والإسبانية أيضاً. ونظراً إلى كونه مركزاً فإنهم يصبونه في كاسات زجاجية صغيرة ولا يضعون في الكأس إلاّ نصفها، ويرتشفونها عند الشرب رشفاً يسمع صوته الجليس والأنيس.

وكان طعم الشاي لذيذاً في هذه الساعة من ساعات الضحى الصحراوي، إلا أنني لم أفعل مثلهم فشربته مثلما أشرب شاينا الخفيف فنفد بسرعة.

وكان الشيخ يشرح دروسه، والجميع صامتون، وأنا أفكر في المساحة الأرضية الشاسعة ما بين بلادنا وهذه البقعة الموريتانية من الوطن العربي، فأعجب لتشابه الوسائل العلمية وأعجب لتماثل الموضوعات. ثم يزيد عجبي أو يزول حينما أذكر أن أول مختصر من

متون النحو حفظته وتعلمت فيه المبادىء النحوية كان الآجرومية، وإنها منسوبة لمؤلفها ابن آجروم وهو رجل من قبيلة صنهاجة، تلك القبيلة التي يقولون إنها عربية أصيلة منذ القديم أي قبل ظهور الإسلام، وهي من سكنة الصحراء الإفريقية الكبرى وبخاصة ما كان من جنوبها.

وأقول: إن العلم لا وطن له، إنما موطنه صدور الرجال، وتقدير العلماء رغم تغير الأحوال وتباعد الأزمان، وهذا ابن آجروم صاحب الآجرومية لم تقتصر شهرته على النحو في لغته الأصلية التي وضع بها ولها كتابه وهي العربية، وإنما تعدى ذلك إلى اللغات الأعجمية وناهيك بالإنكليزية التي تسمى النحو وقواعد اللغة (جرمر) أخذاً من اسم هذا الرجل الصنهاجي ابن آجروم ومن مؤلفه الصغير الحجم، الكثير البركة في النحو (الآجرومية).

وقد مضى الوقت من دون أن أشعر لولا أن نبهني اخواني المرافقون وقالوا: ان اليوم هو الجمعة وبيننا وبين المدينة تسعون كيلا وصلاة الجمعة تحتاج إلى استعداد. فكأنما انتبهت من منام حافل بلذيذ الأحلام.

وقلت لهم وأنا على تلك الحال، بدون مقدمات للمقال: من أين لكم أيها الموريتانيون هذا الحفظ للشروح والمتون؟

فقالوا بالفخر المعهود عند الصحراويين: إن هذه طبيعة في أسلافنا الأولين، ونحن نحافظ عليها، ونتعاهدها في المعاهد التي هي المحاضر، وحتى على ظهور الإبل حين نسافر، فنظل نتبارى في الحفظ، ونسميها الدولة، لأنها جولة بعد جولة، فعلى سبيل المثال إذا

قرآ واحد جزءا من آلفية ابن مالك في النحو ليبرز مكانته في الحفظ، فإن صاحبه يبدأ باللفظ من المكان الذي وقف فيه ثم الذي يليه، وهكذا إلى تمام الجولة في (الدولة). كما قال شاعرنا ابن بونة:

وقد جعلنا ظهور العيس مدرسة   بهـا نبيـن ديـن اللّـه تبيـانـا

وسارع الخاطر يقول: ربما كان الحفظ عندهم بمثابة التعويض عن التضييع في هذه الصحراء الواسعة الشاسعة التي لا يعرف أهلها فيها استقراراً، إلا في أوقات محدودة لا تمنع الاستمرار في التسيار.

وكدت اقتنع من ذلك لولا أنني سآءلت نفسي: لماذا إذاً لا تفعل صحراؤنا بسكانها كما تفعل صحراؤهم بهم، إن صحراءنا لم تعط سكانها الأعراب المتنقلين إلا الجهل بالدين بشهادة التنزيل المبين الذي نص على أن الأعراب من أجدر الناس بالجهل بأحكام الدين، وذلك في قوله تعالى: ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾.

وهنا تساءلت هل السر في المكان أم في السكان؟ ثم قلت: الله أعلم بما يكون وما كان.

بحث في المحضرة:

هذا بحث في المحاضر في موريتانيا قدمه لنا أحد الباحثين من أهلها فرأيت نقله هنا لأهمية الموضوع. قال:

الاشتقاق:

يظهر أن الظاء في المحظرة مقلوبة عن الضاد، وهذا شيء كثير

في اللهجة العربية المحلية، وعلى هذا الأساس فهي على وزن مفعل من حضر، دال على المكانية، وإذاً فالمعنى هو المجموعة المقيمة في مكان معين على وشك أن تتحضر، إذ الغالب في هذه المحاظر أن تستقر حول الآبار لنشر العلم. وأحياناً نجدها متنقلة، أشار إلى ذلك الأدباء الموريتانيون في شعرهم ونثرهم، ومن ذلك قول إمام علمي النحو والكلام المختار ابن بونه:

وقد جعلنا ظهور العيس مدرسة   بها نبين دين اللّه تبيانا

وقد درج العلماء على التجول في المخيم وحوله في أثناء التدريس فهم بذلك شبيهون بما عهد عند أرسطو ومدرسته مدرسة المشائين المشهورة، ولسنا ندرك على سبيل التحديد الرابط التاريخي بين تلك وهذه.

وتعود نشأة هذه المحاظر إلى العقد الثاني أو الثالث من دخول الإسلام في أواخر القرن الأول وبداية القرن الثاني؛

النظام الدراسي:

تمتاز هذه المدرسة بحرية اختيار المادة المدرسية بالنسبة للطالب. بيد أنه لا يختارها وإنما يوجهه مستواه العلمي إلى أحد النصوص المعتمدة لدى المحظرة. وهناك مستوى:

١ ـ ابتدائي ويعرف صاحبه بـ «المبتدى».

٢ ـ وثانوي ويطلق على صاحبيه «ولد زوايا».

بمعنى أنه بعيد كل البعد عن الجهل ولم يبلغ بعد درجة العالم. وكلمة (زوايا) مدلول ثقافي في البلاد إذ يوصف أهلها

باحتضان المعرفة والثقافة كأنهم انزووا عن الجهل إلى مجال الثقافة. والكلمة مشتقة من الإنزواء للعبادة والتعلم، وغالباً ما يكون ذلك حول أضرحة الصالحين.

٣ ـ المستوى الجامعي ويعرف صاحبه «بالمنتهي» وهو الذي استوعب ما لدى أستاذه من العلوم وحينئذ يطلق عليه لقب «العالم» الذي يحق له أن ينصب أستاذاً في محضرة جديدة، وبهذا التنصيب ينال لقب «المرابط» لأنه قادر على أن يدرس باتقان النصوص المعتمدة في المجالات الآتية:

أولاً ـ القرآن وعلومه:

ـ الحفظ.

ـ رسم ابن بري.

ـ نظم الطالب عبد الله الشنقيطي في الرسم.

ثانياً ـ الحديث وعلومه:

ثالثاً ـ علم الكلام (العقيدة الأشعرية).

ـ عقيدة ابن عاشر المغربي.

ـ العقيدة السنوسية.

ـ نظم الواضح المعين لمحمد بن محمد سالم.

ـ نظم الوسيلة للمختار بن بونه.

ـ نظم الإضاءة لأحمد المقري.

رابعاً ـ المنطق: نظم السلم لعبد الرحمن الأخضري.

خامساً ـ الفقه.

ـ مختصر الأخضري.
ـ منظومة المرشد المعين، لابن عاشر.
ـ نظم الكفاف لمحمد مولود بن أحمد فال.
ـ رسالة ابن أبي زيد القيرواني.
ـ مختصر خليل بن إسحاق.
ـ نظم خليل للشيخ محمد المام.

سادساً ـ السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي:

ـ نظم قرة الأبصار لعبد العزيز (اللمطي).
ـ نظم الغزوات للبدوي الشنقيطي.
ـ نظم أنساب العرب وعاداتها وأيامها.
ـ مدائح الرسول ﷺ. مثل قصيدة البردة لكعب بن زهير ومدائح البوصيري.

سابعاً: التصوف: مطهرة القلوب لمحمد مولود بن أحمد فال، ونصيحة محمد فال بن متالي ونصيحة زروق، وتصوف ابن عاشر.

ثامناً ـ علوم اللغة:

النحو والصرف:

ـ الأجرومية.
ـ ملحة الإعراب.
ـ قطر الندى لابن هشام.

- الفية ابن مالك.
- لامية الأفعال لابن مالك

البلاغة:

- الفية السيوطي.

اللغة:

- مقصورة ابن دريد.
- المعلقات السبع.
- دواوين الشعراء الستة برواية الأعلم الشنتمري.
- مقامات الحريري.
- مثلث قطرب.
- مثلث ابن مالك..
- «المقصور والممدود» لابن مالك.

تاسعاً ـ الطب.

- العمدة لأَوفى الكبير الشنقيطي.

أسلوب التعليم:

تبدأ العملية بتصحيح النص المدرس وهو المسمى عندنا بـ «التسكام» من الاستقامة حتى يصبح الطالب متمكناً بنص سليم من اللحن مستقيم من الناحية النحوية والبلاغية، وتتلوها مرحلة حفظ النص، ذلك أن مدرسة الحفظ هي المعتمدة لأسباب جمة منها:

- قلة الورق للتدوين.

ـ والرغبة الملحة في أن يستصحب الطالب على الدوام ما تعلمه من علوم عملاً بالمبدأ:

ليس بعلم ما حوى القِمَطْر ما العلم إلا ما حواه الصدر

ثم تأتي مرحلة التفسير والشرح والتعليق التي يقوم بها (المرابط) تلقائياً دون عودة إلى أي مرجع أياً كان محاذياً في ذلك تقدم الطالب في عرض النص عليه ويسمى هذا العرض في مصطلح المحظرة بـ «التكدام».

وربما استحث المرابط تلميذه بعد الفراغ من الشرح على الاستزادة من النص بكلمة: (كدم). أومش: بمعنى قدم فقرة أخرى من النص.

بعد هذا كله تأتي مرحلة مراجعة الدرس، وتعرف عندنا بكلمة «التكرار»، وغالباً ما تقع في الليل وآخر النهار وتتمثل في إعادة النص والشرح والتعليق مستعيناً فيها الطالب أحياناً بما كتب على لوحه من ملاحظات الشيخ ومعتمداً فيها تارة على الذاكرة وحدها رافعاً صوته ليشرك الفهم والسمع واللسان حرصاً على ترسيخ تلك المعلومات.

وتختلف مدة الدراسة من شخص إلى شخص بحسب عوامل متعددة منها:

ـ درجة الذكاء.

ـ الأحوال الاجتماعية.

ـ الهمة.

ـ مواتاة الظروف... إلخ.

ومن هنا كان الطالب حراً في المدة التي ينوي تخصيصها للتعلم مراعاة لما سبق ذكره، وربما وجهه المرابط إلى اختيار معين اعتباراً لما يلمسه فيه من استعداد لاستيعاب مادة ما، وغالباً ما يكون الدرس فردياً بمعنى أن كل درس يتلقاه طالب واحد.

وربما تكونت فصول صغيرة لدراسة واحدة.. وتسمى في قاموس المحظرة بـ «الدولة».

الصيغة الاجتماعية للمحظرة:

منزلة الطالب من المرابط «الأستاذ» هي منزلة الولد من الأب أو آكد، ولا داعي إلى توضيح أسباب ذلك ولا غرو إذاً والحالة هذه أن يخدم التلميذ الأستاذ كلما دعت الحاجة إلى ذلك وأن يسدي إليه الهدايا عندما تسنح له الفرصة والأستاذ أو المرابط هو الأب والشيخ والمربي والمرشد خلال أيام الدراسة، فهو حنون على تلاميذه عطوف عليهم ويشاطرهم السراء والضراء.

أما طلاب المحظرة الواحدة فشعورهم بالأخوة أمر جرت به العادة ودرج عليه السلوك، فتراهم ينافسون في مجال ثقافي أو رياضي محظرة أخرى أو مجموعة بشرية أخرى صفاً واحداً كأنهم أبناء أسرة واحدة. وتضامنهم أمر لازم يتجلى في كل مناسبة تدعو إلى ذلك: في الأزمات، وضيق ذات اليد، وعند الخصومات والمشاكسات مع غيرهم... وتتولد من هذه الأواصر كلها صداقة متينة تمتد عبر الحياة لما انطوت عليه من تقاسم الآلام والأفراح ومشاطرة المشاعر والأحاسيس، ومن القواعد التي تبنى عليها تلك العلاقات هي قاعدة

التعاون في شتى المجالات في العمل الفكري والعمل اليدوي، وبذل المال والإيثار. . فالمدرسة هنا موطن من مواطن الإنفاق في سبيل الله وقلعة من قلاع التضحية في سبيل الآخرين وللجميع غيرة على شرف المحظرة وعلى أستاذها.

العـــادات:

ولهذه المحاظر عادات تتميز بها عن غيرها من المجموعات البشرية، ونسوق على سبيل المثال منها أن للطلاب امتيازات خصهم المجتمع بها تقديراً وتشجيعاً لهم على مهمة التعلم التي سيقومون فيما بعد بمقتضاها بفرض الكفاية نذكر منها:

- ربع المياه الممنوحة من الآبار لسقي مواشيهم.
- شاة العقيقة أو شياهها.
- شاة بمناسبة حفلات الزواج يسمونها: «العادة».

ومن المأثور عند المجتمع غفران زلات الطلاب، واعفاؤهم من دفع الأتاوات المترتبة على ذويهم.

ومن عاداتهم ممارسة الرياضة لغرضين اثنين:

الحفاظ على الصحة والتسلية. ومن تلك الرياض، السباق، والقفز، وكرة السلة، وحمل الأثقال وقطع المسافات الشاسعة على الأقدام.

ومن تقاليدهم التنكيت، وهو مغتفر لهم، بكل زائر للمحظرة إلا إذا كان جاء لتحصيل العلم. والعطل الأسبوعية عندهم هي عشية

الأربعاء ويوم الخميس وصباح الجمعة. والعطل السنوية الرسمية هي أسبوع بمناسبة عيد النحر وأسبوع بمناسبة مولـد النبي ﷺ وأسبوع بمناسبة عيد الفطر.

الناحية الاقتصادية:

يعتمد الطالب خلال دراسته إما على إمكاناته الخاصة وإما على إمكانات الغير، ففي الحالة الأولى كان الطلاب يفدون إلى المحاظر بحلائب إبل أو بقر أو غنم ويقتاتون بألبانها ويرعونها بالمياومة، يوم على هذا ويوم على ذاك، ومثل هذه المياومة ينطبق على استجلاب الخشب للإنارة والاصطلاء والطهي وعلى جلب الماء كذلك.

وينقسم الطلاب في المحظرة إلى خلايا صغيرة تتقاسم أقواتها داخلها. وتسمى الخلية «راحلة».

وفي الحالة الثانية يكون الطالب عالة على الجميع ولا سيما على المرابط، ويعد في مصطلح المحظرة بـ «الْمُؤَبَّدْ».

أما دخل الأستاذ فيعود إلى مصدرين في أغلب الحالات:

إما مالي من مال موروث ينميه بالطرق المعروفة اللائقة بمكانته المرموقة، وإما إلى الهدايا التي يتطوع بها من شاء من المنفقين، علماً بأنه لا يتسلم أجراً على ما يمارسه من تعليم.

والصفة الكاشفة للطلاب والأساتذة هي التواضع في المظهر، ملبساً، ومأكلاً، والزهد في الدنيا الفانية والتركيز على تحصيل العلم للعمل به لا للكسب المادي. ومن هنا تفتحت المواهب وتولدت العبقريات.

أجل. . . فشعار الطالب والمرابط هو: «أن تجوع وأن تعصى الهوى، وتغترب وتتواضع، وتترع وتهون لتحصل على العلم وقد نظمه بعضهم بقوله:

لـه تغـربْ وتـوضـعْ وأتـرع   وهن وجع وأعص هواك وأتبعِ
حتى ترى حالك حال المنشد   لـو أن سلمى أبصرت تخـدُّدي
ودقـة فـي عظـم ساقي ويـدي   وبعـد أهلـي وجفـاء عـودي
عضت من الوجد بأطراف اليد

ومثل هذا السلوك من أمثل طريق يتبعه المتصوفة لتربية مريديهم. فإلى جانب الرياضة البدنية للحفاظ على الصحة تقوم هذه الرياضة الروحية بالحفاظ على الحس والذوق الضروريين للسلامة في الآخرة. ولا سلامة إلا باتباع الهدى وتطبيق شريعة الله في أرضه على عباده في أنفسهم وفي غيرهم، وإذا ما درس المرء الشريعة الإسلامية وروض نفسه على اتباع تعاليمها كان مهيئاً لأن يكون من التابعين بإحسان لخاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وخلاصة القول أن المحاظر العلمية والقرآنية هي التي حفظت لنا مجدنا وشخصيتنا عبر التاريخ بالرغم مما عانيناه من احتلال مناوىء لديننا وثقافتنا وبالرغم من تجافي العصر عن كل ما له صلة بالدين والثقافة الإسلامية ولا سيما بعد الاكتشافات العلمية والصناعية الحديثة التي خطفت بصائر كثير من الناس وطَبَتْهُم إلى التفكير المادي مبتعدة بهم عن المجال الروحي.

في هذه الصحراء القاحلة شهد الإسلام وثقافته ازدهاراً لم يشهده في أي بلد عربي إسلامي إذ اتجهت منه شعبة إلى جنوب القارة

الإفريقية أضاء نورها أدغال الخط الاستوائي، واتجهت منه شعبة إلى الشمال الشرقي من الوطن العربي لترجع العلم والشريعة الغراء إلى منابعها الأصلية، مكة والمدينة، بعد أن تركت خلفها مجرة ناصعة في أشهر العواصم العربية كالقاهرة وعمان، وبقيت «تصيح بمن يمر ألا تراني»، آثارُ أعلام لا يستطاع نكرانها لا تزال أصداؤها تتردد على المسامع بالرغم من محاولة كتمانها والغض من شأنها. فمن غير الممكن سدل الستار على أسماء أولئك الأعلام حينما يراجع القارىء العربي أمهات الكتب المعتمدة في علوم اللغة العربية والفقه والأصول... فمن هو المثقف العربي الذي يجهل أو يتجاهل العلامة محمد محمود ولد التلاميذ: محمد العاقب ومحمد الخضر، ومحمد الأمين الشنقيطي وآبه بن أخطورم وغيرهم كثير... الأمر الذي خلده التراث الأدبي الذي تزخر به هذه المحاظر وتتميز به عن كافة مؤسسات التعليم في أرجاء العالم.

العودة إلى نواكشوط:

ودعنا الشيخ الوقور شيخ محضرة الميمون، ولاحظت عند الوداع ما لاحظته عند الاستقبال وهو أن الشيخ قد علق في رقبته سلسلة تنتهي في الأسفل بخمسة حروز (تمائم) وهي تطل من جيبه الواسع دون استحياء، وبين الاستقبال والوداع لاحظت أنه قد ربط في ذراعه تميمة (حرزاً) أيضاً، وكان وداع الشيخ مسجلاً بالصور رغم أنني كنت مستعجلاً.

انطلق السائق يسير وكأنه يطير بسيارته فكأنما أُفلت من عقال، أو كأنما بذل له مال، على أن يسرع المآل، إلى نواكشوط، فكان مؤشر

السرعة يصل إلى ١٤٠ كيلو متراً في الساعة. ولولا أنني نبهته، بل نهيته لكان استمر على ذلك أو كاد.

وذكرت السر في ذلك وهو أنه يسوق في صحراء خالية من العوائق الطبيعية كالجبال والأشجار العالية، وذلك بعكس الهند ـ على سبيل المثال ـ التي لا تزيد سرعة السيارات في طرقها الريفية على ثلاثين كيلو متراً، وإذا زادت كان ذلك خطراً مؤكداً لأن العوائق كثيرة من الأشجار ومجاري المياه، بل والمنازل وسوء حالة الطرق التي تجعل بعضها منعطفات ـ لا يستطيع السائق أن يرى منها بعيداً من الطريق، إلى جانب الحيوان السائب، والقرويين الذين لا يعرفون آداب السير والعربات التي تجرها الثيران، إلى جانب العربات التي يسوقها الإنسان وغير ذلك مما ذكرته في كتبي عن (الرحلات الهندية).

جمعة نواكشوط:

طلبت أن أصلي الجمعة اليوم في أكبر جوامع المدينة، فقالوا: إنه الجامع القديم المسمى (جامع العاصمة) وقدمه نسبي لأن عمره مثل سائر المدينة لا يصل إلى ربع قرن. وهناك مسجدان كبيران يفوقانه في السعة، واستيعاب المصلين، كما لا تمكن مقارنة بنائه ببنائهما في الروعة والفخامة وكثرة النفقة على العناية بهما. ولكن لم تبدأ الصلاة بهما بعد. قالوا لي:

أحدهما: ذلك الجامع السعودي بل الجامع الذي بنته المملكة العربية السعودية وستقدمه بصفة رسمية هدية إلى شعب موريتانيا في صباح غد السبت، وستكون انت الذي تتولى تقديمه كما يقضي البرنامج.



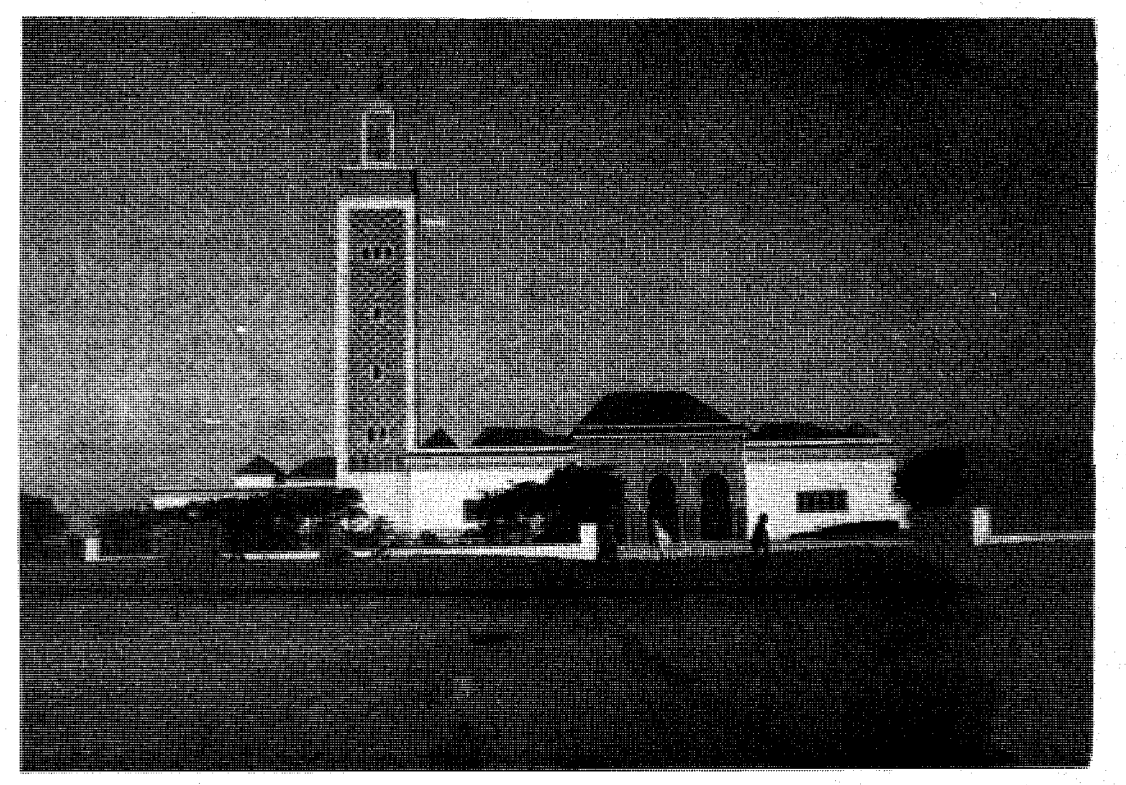
الجامع الكبير القديم في نواكشوط

الجامع الثاني: جامع مغربي وهذه النسبة لطرازه المغربي العربي، وهي أيضاً نسبة إلى الذين قاموا بتشييده، والإنفاق عليه وهم المغاربة، إلا أن العلاقات السياسية ما بين المغرب وموريتانيا اعتراها الفساد، بسبب موضوع الصحراء الغربية التي عادت إلى أمها المغربية، ولكن أهواء من أهواء الحكام في بعض البلدان العربية أغرت جماعات من سكان الصحراء فأعلنوا أنهم لا يقبلون أن يضمها المغرب إليه قهراً، وأنهم يريدون إنشاء جمهورية عربية صحراوية، يتقربون بذلك إلى ذوي النفوس البريئة، ولم يعلموا أن العرب ملوا من تسميات

البلدان التي لا تستحق تلك الأسماء لصغرها لا فعلاً ولا رسماً، وإنما يحق لهم أن يتمثلوا إذا سمعوا بها بما قاله ابن رشيق في أندلس الطوائف:

مما يزهدني في أرض أندلس   أسمـاء معتضـد فيهـا ومعتمـد
أسماء مملكة في غير موضعها   كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

وعندما اعترى العلاقات بين الدولتين الفتور، بل النفور، وقفت الأمور في هذا الجامع الكبير. فوقف العمل فيه قبل التمام، أو هو يسير فيه على غير انتظام.



الجامع الذي بنته الحكومة المغربية وحالت الظروف السياسية دون تدشينه منذ ست سنوات حتى الآن.

جامع العاصمة:

عندما دخلت إلى جامع العاصمة استصغرته عن أن يكون أكبر الجوامع في عاصمة دولة إسلامية. إلا أنني عندما رأيت الحضور وهم يتقاطرون إليه حتى أذن الآذان الأول وهم لم يملؤوا نصفه، عرفت أن ذلك ليس بالعجيب.

ولكنني رأيت من أمره عجيبين آخرين: أحدهما أنني رأيت ضابطاً واقفاً بملابسه العسكرية الرسمية قرب المحراب. وعدة جنود بملابسهم الرسمية العسكرية أيضاً وهم واقفون كذلك في أيمن المسجد وأيسره، فجزمت في تفكيري أنهم جاؤوا إلى هذا الجامع لكون رئيس البلاد أو رئيس الوزراء، سيصلي في المسجد وهم لحراسته. وقد ظلوا وقوفاً هكذا إلى أن أقيمت الصلاة فدخلوا يصلون مع الناس مثل الآخرين. فقلت في نفسي: لو كانوا يحرسون رئيساً أو مسئولاً كبيراً لما دخلوا في الصلاة عند الإقامة.

ثم عندما انقضت الصلاة لم أرَ في المسجد رئيساً ولا أحداً يجتمع عنده الناس ويرنون إليه بأبصارهم فسألت عن خبرهم؟ فقالوا: إنهم جاؤوا لحفظ الأمن في المسجد. والفصل بين من قد يتنازعون من المصلين على أمر من الأمور، وإلا فإنه لم يحضر إلى الصلاة في هذا المسجد رئيس ولا من يستحق أن يحرس من الناس.

وقد دلني على ذلك أن أحد الشرطة كان بجانبي في الصلاة فلما انقضت الصلاة ذهب بهدوء إلى زملائه ولم يقف عند أحد أو يهتم بأمر أحد.

والعجب الثاني: أن الذي صلّى بجانبي من جهة اليمين وهو

رجل متدين في حدود الخمسين من عمره احضر معه منديلا من القماش فيه تراب، ففتحه وأخذ يضرب به يديه ويمسح وجهه ويديه كما يفعل المتيمم الذي قد عدم الماء، فذكرت بذلك ما كنت قد سمعته من أن بعض الموريتانيين يتيممون للصلاة مع قدرتهم على الماء، وهذا أمر لا يجوز شرعاً لأن التيمم لا يجوز إلا عند فقد الماء كما قال الله تعالى: ﴿**فإن لم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً**﴾، ولقد تأملت هذا الشخص الذي بجانبي حين قلت في نفسي: إنه ربما كان في يديه أو وجهه مرض يمنعه من استعمال الماء، فلم أرَ فيه من ذلك شيئاً.

والأدهى من ذلك أن الشرطي وهو شاب مفتول العضلات كان واقفاً طول الوقت مرتدياً حذاءه العسكري الثقيل فلما اقيمت الصلاة نزع حذاءه وسحب ذلك المنديل الذي يضم التراب الذي مع جاري الأيمن، والشرطي كان عن يساري فتيمم منه أيضاً ودخل في الصلاة.

ولقد رأيت مثل هذا الرجل وغيره ممن احضروا تراب التيمم معهم إلى المسجد. ولكن عددهم كان قليلاً جداً، بالنسبة إلى عدد المصلين الذين لم يحضروا معهم شيئاً من التراب إلى المسجد الذي كان مفروشاً بحصر رخيصة.

عندما دخلنا إلى الجامع لم يكن وقت الخطبة قد حان، فكان هناك رجل يعظ الناس ويذكرهم عند المحراب يورد آيات فيفسرها، ويأتي بأحاديث ويشرحها. وكل ذلك باللغة العربية لأنها لغة القوم التي لا يستعملون غيرها.

وعندما قارب هذا الواعظ من الانتهاء من وعظه، نادى رجلاً

فوقف بجانبه وجعل الواعظ يقدمه إلى الحضور ويضرب على كتفه كالمعرف به والمقرظ لعلمه، ثم جلس، وابتدأ الرجل الآخر يعظ الناس ويذكرهم في شرح أحاديث يوردها، وعندما انتهى جلس، وقام آخر في مكانه يتكلم أيضاً، وكانوا كلهم يتكلمون وهم وقوف من دون مكبر للصوت لأن أصواتهم جهورية. والمسجد ليس ببالغ السعة، وظل الأخير يعظ حتى أَذن الأذان الثاني، أما الأول فكانوا قد أذنوا له قبل فترة. وكان الواعظ منهم يرد على أسئلة المستمعين واستفساراتهم أثناء الدرس وهو واقف وهم جلوس ويخرج ساعته أحياناً وينظر فيها والأخير منهم كان ينظر في كتاب معه في بعض الأحيان.

خطبة في محلها:

بعد الأذان الثاني الذي كان سريعاً جداً، حتى إنني عندما سمعته ذكرت أذان أهل نجد من القرويين وأهل البدو الذين يحدرونه حدراً، ولا يبالغون بل لا يبالون في اخراج حروفه من مخارجها. صعد الخطيب المنبر وأسرع يبدأ خطبة بليغة كان موضوعها موضوع الساعة، وإن لم يكن ابن تلك الساعة ألا وهو التيمم مع وجود الماء فشدد الخطيب النكير على من يفعل ذلك وأورد الأدلة على ما قاله من الكتاب والسنة. وقال وكرر ما قال: إن الذي يتيمم للصلاة مع قدرته على الماء صلاته باطلة، فأيكم يحب أن تكون جمعته باطلة؟ وقال: إنه بهذا أيضاً يرتكب إثماً عظيماً لأنه يجاهر بمخالفة أمر الله ورسوله. وكان كلامه في ذلك واضحاً جداً، فعسى أن يمتثله كل القوم، وقد استسقى الخطيب في الخطبة فأمن الجميع على ذلك بحرارة.

ولا شك في أن التييم عادة باقية عندهم من عادات التنقل

والترحال في الصحراء حيث يعدم الماء أو يكاد في كثير من الأحيان وبقي عليها من بقي منهم ممن لا فقه عندهم في الدين، أو لا مبالاة بنصح الناصحين.

وقد أخبرنا إخوتنا من الموريتانيين بعد ذلك أن هذه العادة قد قلت كثيراً وأنها آخذة في الانقراض بعد أن عرف الناس حياة الإستقرار في القرى ووجدوا أن الماء متيسر لديهم للوضوء في أكثر الحالات.

وبهذه المناسبة لا أرى مانعاً من تخوف كان قد أبداه بعض الإخوة عندما يسلم الجامع الكبير الذي بنته المملكة إلى الإخوة الموريتانيين وهو مفروش بالسجاد الفاخر الثمين، كما أنه مجهز بأماكن للوضوء حديثة نظيفة، فقال: إنه يخشى على فراش المسجد من أن يلوثه تراب المتيممين، وعلى أماكن الوضوء أن تبور من قلة المتوضئين، وقد طمأنته اليوم إلى أن خوفه ليس في محله لأني سمعت موعظة الواعظ بليغة صريحة في النهي عن هذه العادة غير الصحيحة.

هذا وقد كنت أتأمل الناس وهم في الصفوف في صلاة الجمعة فأرى ملابسهم نظيفة، بل قل أن تجد من حضر إلى المسجد بثوب غير نقي رغم ما يوحي به تيممهم بالتراب من كونهم لا يستعملون الماء كثيراً في العادة. وقلت في نفسي: لو كان الأمر هنا على إطلاقه لما كانت ملابسهم نظيفة، بل غاية في النظافة، ولكانت كما كانت ملابس الأعراب والقرويين عندنا في الماضي متسخة يؤذي منظرها العين، وتؤذي رائحتها الأنف.

أما قراءة الإمام فإنها مغربية سريعة ولكنها مجودة، وهو يتمسك بالإمالة في آخر الآيات ولا يتركها، وعندما فرغ من الصلاة قبل

التسليم. قال بصوت عالٍ (السلام عليكم) ولم يزد على ذلك فأسرع الجميع بالسلام.

ولم يتنفل القوم في المسجد بعد الجمعة وهم في هذا عكس الأتراك الذين يتنفلون بعد صلاة الجمعة، ويكثرون من ذلك حتى يصلوا ثمان ركعات ويلازمون ذلك كلهم حتى يظن بعضهم، أو بعض من يراهم يفعلون ذلك بأنه أمر لازم للصلاة لا يجوز تركه.

مكتب رابطة العالم الإسلامي:

تشمل مهمتي الرسمية في موريتانيا أمرين:

الأول: تفقد مكتب رابطة العالم الإسلامي التي أعمل الآن أميناً عاماً مساعداً لها، وهي مهمة تتسع فتشمل موريتانيا والسنغال والجابون والكنغو وزايير.

والمهمة الثانية: تسليم الجامع الكبير الذي بنته المملكة العربية السعودية وتقدمه هدية للشعب الموريتاني وقد حدد لهذه المهمة صباح غد.

أما مكتب الرابطة فإن زيارته كانت مقررة في عصر هذا اليوم.

انطلقت في الرابعة والنصف لزيارة مكتب الرابطة، وعندما وصلته وجدته في مكان ضيق وغير مناسب حتى ان عدداً من الكتب الجيدة التي كانت الرابطة قد أرسلتها إلى المكتب قد رأيتها مكدسة في صناديقها الورقية لم تفتح، وكان يرافقنا الشيخ محمد فال البناني مدير المكتب وهو شيخ موريتاني مسن ومريض. فقال: إن السبب في ذلك هو ضيق المكان وعدم وجود رفوف توضع عليها تلك الكتب، وقال:

أنا ليست عندي نقود لشراء الرفوف، والرابطة لم ترسل إليَّ نقوداً لهذا الغرض.

وهكذا ضاعت الفائدة من الكتب.

ومن الغريب في الأمر أنني حينما استصغرت هذا المكتب واستكثرت أجرته عليه وهي ثلاثة آلاف ريال سعودية في الشهر أخبرني الشيخ (محمد فال) مدير المكتب أن هذه أجرة مخفضة وإنما أجرته الأولى التي تسلمها حسب العقد هي خمسة آلاف ريال في الشهر. مع أن مثيله في بلادنا لا تزيد أجرته على ألف ريال في الشهر ولكنهم أخبروني أن مستوى الأجور هنا عالٍ بسبب قلة المساكن وكثرة الطلب عليها وبخاصة في هذه الأزمان التي هي أزمان الجدب ونزول كثير من أهل البدو إلى المدينة. واعتذر الشيخ محمد وقال: بأنه الإداري الوحيد في المكتب فليس له مساعد وليس في المكتب محاسب ولا محرر.

مدرسة العون:

ومن مكتب الرابطة الذي لا يسر ذهبنا إلى مدرسة (العون) الإسلامية.

وفي الطريق رأينا فرناً كتبوا اسمه عليه (مخبزة) وهذه تسمية فصيحة، فصانع الخبز خباز ومكانه (مخبزة) وإن لم تكن هذه الكلمة مستعملة في شرقنا العربي.

استقبلنا عند باب مدرسة العون مديرها الأخ محمد الأمين ولد الحسن. وهي (محضرة) أي على نظام المحاضر القديمة مثل التي

رأيناها أمس في الأصل إلا أنهم طوروا اسمها كما طوروا رسمها بأن جعلوا فيها سبورات ومقاعد خشبية للطلبة.

وصعدنا إلى الطابق الثاني لمشاهدة فصل من الفصول واعتذروا بأن اليوم الجمعة هو يوم العطلة الأسبوعية، ولذلك لم يكن عدد الطلاب كبيراً، فقلنا لهم: لا بأس، والمقصود لنا أن نرى أنموذجاً لعمل المدرسة.

تكلم المدير مرحباً ومعرفاً بالمدرسة وهدفها النبيل في المحافظة على تدريس العلوم الإسلامية ومواصلة ما يخشى أن ينقطع من الدراسة التقليدية التي أنجبت العلماء القدماء إلا أن هذا لم يمنع إدارة المدرسة من محاولة تطوير الوسائل والأدوات للمدرسة بسبب كونها في المدينة وكون العدد الذي التحق بها من الطلبة كبيراً.

وفي نهاية حديثه أوضح أن المدرسة بحاجة إلى المساعدة على أداء عملها على الوجه الأكمل، لأن إمكاناتها أقل من طموح القائمين عليها.

كان المدير يتكلم وكنت أتأمل الطلاب الذين أمامي فأجد أغلبهم سمراً يشبهون في سمرتهم أهل البوادي من أهل نجد، وليس بينهم سود.

وقد تجمهر الناس وبخاصة من كانوا من طلبة العلم، وحتى من الجمهور الذين جذبهم تجمع الناس حول المدرسة فسدوا منافذ الهواء فيها من الممرات والباب، ولم يكن في المدرسة من وسائل مكافحة الحر شيء فليس فيها مراوح فضلاً عن أنه يكون فيها مكيفات للهواء ولم يحضروا حتى المراوح اليدوية القديمة.



مع الطلاب وشيخهم في أحد مدارس نواكشوط

وقد عانينا من الحر والعرق فقلت في نفسي: كيف الأمر في فصل الصيف لأننا الآن في الخريف؛ ولكن لا شك في أنه إذا كان العدد الموجود في الغرفة محدوداً فإن الإحساس بالحرارة سيكون أقل.

وقال المدير: إن عدد الطلاب في المدرسة بلغ في الوقت الحاضر مائة والمدرسين خمسة، وإنهم يحتاجون للمزيد من المدرسين حتى يتمكنوا من قبول المزيد من الطلاب، وطلب من الرابطة أن تعين بنفقتها بعض المتخرجين من (المعهد القرآني) في نواكشوط الذي تقوم الرابطة بالإنفاق عليه، وقد وعدتهم خيراً، وأننا سننظر في طلبهم هذا.

الجمعية الثقافية الإسلامية:

زرنا المكتب التنفيذي للجمعية، وقد استقبلنا في المكتب بعض المؤسسين لها وقالوا: إن آخرين من زملائهم قد ذهبوا إلى خارج العاصمة في جولة لإلقاء المحاضرات والمواعظ. وشكوا من قلة موارد الجمعية وقالوا: إن هذا المكتب نفسه مؤجر وانهم يتعبون في جمع إجرته، وطلبوا المساعدة من المملكة العربية السعودية حتى يتمكنوا من القيام بما يريدون القيام به من أعمال ثقافية نافعة.

وقالوا: إنهم يدفعون أجرة لمقر الجمعية قدرها عشرون ألف أوقية في الشهر، ومن المعلوم أن الدولار الواحد يساوي ٤٣ أوقية. وإن الريال السعودي الواحد يعاد اثنتي عشرة أوقية.

وقد احضروا شراب (الكوكا كولا) ولكنهم احضروا معه حليباً معلباً فكانوا يخلطونه به ويشربونه، وهذا أمر لم أره عند غيرهم في العالم.

وتتلخص أهداف الجمعية كما قدموها لنا في القاء المحاضرات، وتوزيع المنشورات الثقافية والمساعدة على الحصول على المعرفة الإسلامية لمن يريدها.

إضافة إلى برنامج يتطلعون إليه في فتح دور الأيتام ومساعدة الأرامل والعاجزين.

حينما سألتهم عن اسم الحي الذي يقع فيه مقر الجمعية؟ أجابوا بأنه في (ر) ولم أفهم ذلك في أول الأمر حتى أفهموني أنه بالنظر إلى حداثة بناء العاصمة فإن أحياءَها قد سميت بأسماء حروف الهجاء، فكان نصيب هذا الحي حرف الراء (ر).



مدخل الجمعية الثقافية الموريتانية في نواكشوط

حفلة جمعية المساجد:

قال الأخ الكريم محمد ولد سيدي أحمد بلقرون الموظف المرافق من المراسم: إن جمعية المساجد هي جمعية مؤلفة من رجال الأعمال والتجار المحبين للخير، وإنهم أرادوا تكريمكم بإقامة حفلة عشاء رأوا أن أنسب مكان لذلك هو فندقكم هذا لأنه أيسر من الانتقال إلى مكان آخر.

وفي الساعة الثامنة مساءً كان الجميع قد التفوا على مائدة طويلة جلس عليها طائفة من المدعوين، وفيهم المهندسان السعوديان (عبد الله بن حمود الجنيني)، و (أحمد بن عمر العمري)، وزميلي

السفير عبد الوهاب الدكوري، وبعض الأعيان من الموريتانيين كما حضرها عدد من المدعوين وكبار الموظفين المورِيتانيين وبخاصة من موظفي وزارة الأوقاف والتوجيه الديني وكانت حفلة مفيدة جداً، لأن الأخوة الموريتانيين بما يتصفون به من لطف المعشر، ورهافة الحس، وتذوق الأدب، والميل إلى معرفة التاريخ هم خير من تلتمس عندهم الفائدة عن تاريخ هذه البلاد الموريتانية القريب والبعيد.

وكان رئيس الجمعية من (ويلاتا) المدينة التاريخية الواقعة الآن في منطقة الحوض من موريتانيا، وكانت تعتبر من قبل من بلاد السودان، وقد زارها ابن بطوطة منذ سبعمائة سنة فذكر أشياء غريبة من تمسك أهلها بالإسلام وحرصهم على حفظ القرآن حتى قال: إن القاضي قيد ابنه حتى يحفظ القرآن.

إلا أنه ذكر أشياء عن (ويلاتا) لم تعجب أخانا ومضيفنا في هذه الحفلة، بل قال: إنها غير معقولة، ولا يعقل أن تصدر عن المسلمين. ومن ذلك أن نساء القاضي وبناته كن لا يستترن من الرجال الأجانب.

لقد كان هؤلاء الأخوة يتحدثون عن ماضي موريتانيا ويبدون القول ويعيدونه بأن المرابطين قد انطلقوا من هذه البقاع القريبة من نواكشوط، وإن هناك موضعاً يقع إلى الشمال من العاصمة قد دفن فيه ابن عامر.

ولقد وافقتهم على ذلك، لأنني أعرف أن المرابطين هم بالفعل أول من دعوا إلى الإسلام بصفة جماعية، وأحياناً بقوة السلطان في غرب أفريقية (بلاد غانة القديمة).

إلا أن الذي لم أستطع أن أتفق معهم عليه هو أن المرابطين قد

انطلقوا من هذه البقعة في جنوب الصحراء التي تعتبر خلف الصحراء، فذهبوا شمالاً إلى المغرب العربي الآن.

إذ كنت أعتقد أن أولئك جاؤوا من الصحراء حيث كانوا يعيشون على جانبها الشمالي وليس في جانبها الجنوبي إلا إذا أريد بذلك أن طائفة منهم هاجرت بعد ذلك إلى الشمال فهذا صحيح، وواقع تاريخياً، ولكن الموضوع على أية حال لا يزال يحتاج إلى المزيد من البحث والتحقيق، حول تحديد تلك الطائفة من المرابطين، وتقدير نسبتهم العددية إلى باقي المرابطين الذين ظلوا في الصحراء الموريتانية، أو ذهبوا منها إلى جهة بلاد السودان في الجنوب.

يوم السبت ١٥/٢/١٤٠٤ هـ، ١٩/١١/١٩٨٣:

صباح موريتانيا:

كان صباح موريتانيا هو صباح فندق الصباح الذي يقع على البحر المحيط الأعظم، وهو الذي نسميه الآن بالمحيط الأطلسي صباحاً مليئاً بالمسرات، من الأحلام التي كانت أمنيات فأصبحت حقيقة في عاصمة موريتانيا المسلمة، وكنت أتخيل المرابطين وقد ربطوا خيولهم في ذلك الموضع القريب من نواكشوط ثم انطلقوا بها إلى حيث الجنوب يبحثون عن قلوب متعطشة للإيمان، وأرض جديدة لدين الإسلام فكان لهم ما أرادوا وإن كان بعض المهتدين لم يكن كذلك إلا بعد أن أصبحوا هم في خبر كان فإن لهم سبق الفضل وأجر البداءة بالخير.

وقد أصبحت تلك البلاد الإفريقية المسلمة التي توجهوا إليها بعدهم دار إسلام ثم صارت منطلقاً لانتشار الإسلام إلى ما كان عنها جنوباً حتى بلغ انطلاقها موقع خط الاستواء في ذلك الإتجاه أو كاد.

وها هي الآن تنهض من رذاذ المحيط الأعظم وعلى رماله التي تغسلها الأمواج عاصمة عربية إسلامية ينشد حالها إن لم ينشد مقالها قول الشاعر:

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

وخرجت من غرفتي يلتمس بصري ما يكون على شواطىء المحيط الأعظم في العادة من اخضرار الأشجار، والتفاف الأعشاب، فكان أول ما صافحتها (التويرجة) شجرة العُشَر الصحراوية الكثيرة في بلادنا النجدية، كأنما نبتت هنا ونمت لتثبت الوحدة بين الصحراوين رغم تباعد الموقعين.

وكان المنظر أيضاً في الشاطىء الرملي الملحي المنبسط يشبه الشاطىء في مدينة جدة قبل أن يدخله التحسين والتزيين.

وكان الإخوة الموريتانيون الكرام وهم يحيون تحية الصباح وثيابهم العربية الفضفاضة تسابقهم إلى ذلك وترفرف فوق اكتافهم وعلى جنوبهم كما ترفرف الطيور عندما يغلبها الحبور.

وأدرك شهرزاد النهار، فسكتت عن الادِّكار.

حفلة تسليم الجامع:

وهو الجامع الكبير الذي قلت: إن الحكومة السعودية قد بنته وقدمته هدية إلى الشعب الموريتاني، وقد حضر الاجتماع للحفل عدد كبير من المسئولين الموريتانيين وبخاصة موظفي وزارة العدل والتوجيه الديني التي ستتولى تسلـم الجامع نيابة عن الحكومة الموريتانية، ثم تتولى رعاية شؤونه فيما بعد، منهم الأستاذ كميل عالي جالّو الأمين العام للوزارة والأستاذ مختار كاكيه مستشار وزير العدل والتوجيه الإسلامي، والأخ محمد علي - وبعضهم يقول عالي - ولد زين مدير إدارة الأوقاف في موريتانيا والشيخ محمد فال البناني مدير مكتب رابطة العالم الإسلامي في نواكشوط. والأستاذ محمد يحيى بن خيري مدير



أثناء الاحتفال بتسليم الجامع

معهد الدراسات القرآنية التابع للرابطة. كما حضره القائم بأعمال السفارة السعودية (سليمان الناصر)، وأعضاء السفارة والملحق السعودي الديني الشيخ (صالح السبيعي)، وممثل وزارة المالية المهندس محمد عمر العمري، وقد بدأ الحفل بتلاوة آيات كريمة من كتاب الله، أعقبتها كلمة مدير التوجيه الديني في موريتانيا الشيخ حمداً ولد التاه، وألقى الشيخ محمد المختار حاجيه، كلمة وزارة العدل والتوجيه الإسلامي، تضمنت الترحيب بوفد المملكة العربية السعودية الذي حضر لتسليم هذا الجامع رمزاً للتعاون الأخوي الإسلامي بين المملكة العربية السعودية وموريتانيا، والشكر للمملكة العربية السعودية وعلى رأسها الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود الذي أمر

بالإنفاق على هذا الجامع العظيم ثم تسليمه للشعب الموريتاني.



المؤلف يتفقد أركان الجامع قبل تسليمه للأخوة الموريتانيين

ثم القيتُ كلمة المملكة العربية السعودية في هذه المناسبة وهي مرتجلة غير مكتوبة، قلت فيها: إنه يسرنا أن نتولى تسليم هذه الهدية الثمنية هذا الجامع الذي يذكر فيه اسم الله تعالى وسيكون شاهداً للتعاون على البر والتقوى، وهو تطبيق لسياسة التضامن الإسلامي التي تسير عليها المملكة العربية السعودية تجاه الإخوة المسلمين، وتتلخص في التعاون معهم على الخير وبذل كل ما تستطيع بذله لمؤسساتهم الإسلامية دون التدخل في شؤونهم الداخلية.

وكان الحفل منقولاً ومصوراً بالتلفزة وأذيع بعد ذلك في هذه الليلة في وسائل الإعلام المختلفة



داخل الجامع الذي أهدته المملكة العربية السعودية إلى موريتانيا

وبعد انتهاء الحفل دخلنا إلى المسجد وأدينا فيه ركعتين تحية لهذا المسجد العظيم وشكرنا الله تعالى في هذه المناسبة السعيدة.

والحقيقة أنه كان حفلاً جيداً ليس من أجل الحفل نفسه، وإنما من أجل أنه احتفال بافتتاح بيت من بيوت الله ليكون رمزاً لتعاون قطرين مسلمين على البر والتقوى.

وقد بلغت تكاليف إنشاء هذا المسجد تسعة وأربعين مليون ريال سعودي، واستمر بناؤه أربع سنوات وأشرف عليه عدد من الموظفين

الذين ينتدبون من المملكة وعلى رأسهم المهندس السعودي المشرف على بناء المسجد وهو (عبد الله بن حمود الجنيني).



الآيات القرآنية الكريمة على حائط الجامع السعودي في نواكشوط

الشعر في تسليم الجامع:

الشعر في موريتانيا كما قلت هو أصيل، ولذلك جادت قريحة الشاعر الأديب الأستاذ (حمداً ولد تاه) مدير التوجيه الإسلامي في وزارة العدل والتوجيه الإسلامي في موريتانيا بالأبيات التالية في هذه المناسبة وهي تتضمن شكر المملكة العربية السعودية على إقامة هذا المسجد العظيم في نواكشوط، وبيان مآثرها في هذا السبيل.



المؤلف يدلي بتصريحات للصحافيين بعد الاحتفال بتسليم الجامع للموريتانيين

للشاعر حمدان بن التاه:

يـا مـرحبـاً بمحمـد العبـودي   وبـوفـده المشكـور والمحمـود

وأريـج تلـك الأرض ان قلـوبنـا   في أرضكم وجسومنا في البيدِ

وفـد أتـى ببنـي جسـور مـودة   وأخـوة فـي غـايـة التـوكيـدِ

وقد اتى كيما يدشن جامعا سيكون منبع حكمة وسجودِ
إذ كان فيصل للقواعد قد بنى أو كان خالد زاد في التشييدِ
فاليوم يكمل فهدنا ما شيدوا ويزيد في التعزيز والتوطيدِ
تلك الشموس تدور في أفلاكها وبها يعزز ملك آل سعودِ
لا زال ذاك السعد فيهم طالعا متماسك الأركان في تصعيدِ
يحمون دين اللّه من أعدائه ويبلغون رسالة التوحيدِ
يرعون ذكر اللّه بين عباده بالحفظ والتفسير والتجويد
والسنة الغراء تنشر بينهم من غير تدنيس ولا تفنيدِ
والبحث في التشريع يبدأ نهضة من غير تحريف ولا تجميدِ
والدعوة الكبرى تكافح جهرة في حملة التنصير والتهويدِ
يا أيها الوفد المظفر بلغوا ذاك الجناب تحية التأييدِ
ولأسرة المجد الطريف وأسرة الـ ـمجد التليد على الهدى والجودِ
قصر العدالة شاهد من جودكم والمعهد العالي أعز شهود
أنا على ذاك الطريق لسائرو ن مكافحين مظاهر التلحيدِ
عاشت رسالة أمة نالت بها مجداً يسير لغاية التخليدِ

مدرسة الفلاح:

بعد انقضاء الاحتفال بتسليم الجامع للحكومة الموريتانية انطلقنا ومعنا المرافقون لزيارة مدرسة الفلاح الإسلامية وهي واحدة من مجموعة من المدارس بهذا الإسم كان قد أسسها الشيخ محمود باه في عام ١٩٤١ م أو على الأصح كان المذكور قد ابتدأ تأسيسها في ذلك التاريخ وما زال ينميها ويتصل بشأنها بالمسئولين عن التعليم والدعوة الإسلامية في الأقطار الإسلامية ومنها المملكة العربية السعودية بغية مدها بالمساعدات الثقافية.



تحلق الأخوة الموريتانيون على المؤلف ومعهم بعض موظفي السفارة السعودية عند الخروج من الجامع بعد الاحتفال بتسلمه للأخوة الموريتانيين.

وتتدرج الدراسة في هذه المدرسة من الابتدائي إلى الثانوي وقد دخلنا الفصل الأول الإبتدائي فوجدناهم يحفظون الطلاب سورة الإخلاص.

وهي في بناء اسمنتي جيد مملوك للمدرسة، ومن الملاحظات الظاهرة هنا أن طلاب هذه المدرسة أكثرهم من السودانيين، أي: من أهل جنوب موريتانيا من حدود مالي والسنغال وفيهم قليل جداً من البيض فهي على عكس مدرسة العون التي زرناها أمس التي تتألف أكثرية طلابها من الموريتانيين السمر الذين يسمونهم هنا البيض أو

البيضان. كما يعبرون عن ذلك بلهجتهم، وهو تعبير عندهم قديم ليقابل لفظ السودان، بمعنى ذوي اللون الأسود.

المعهد القرآني:

المعهد القرآني هذا تابع لرابطة العالم الإسلامي التي أتولى فيها منصب الأمين العام المساعد قد أنشأته الرابطة وتتولى الإنفاق عليه.

ويقع في بناء حكومي ساعدت بعض الجهات في المملكة العربية السعودية على بنائه، وهو حديث جيد إلا أنه مزدحم إذ فيه كلية الآداب، إحدى الكليات الثلاث التي تتألف منها جامعة نواكشوط. والمعهد العالي للدراسات الإسلامية، وأقسام من مدرسة المعلمين العالية، ولذلك صار (المعهد القرآني) أو معهد الدراسات القرآنية هذا محشوراً في ركن محدود من المبنى من حيث عدد الغرف.

ومن غريب المصادفات أن طلاب المعهد في العطلة الصيفية، ويستأنفون الدراسة غداً أي بعد سفرنا بيوم واحد، ولذلك لم نرَ الطلبة وإنما رأينا أماكنهم.

وحدثنا مدير المعهد الشيخ يحيى ولد خيري أن بناء المعهد يضيق عن حاجتهم، وإنهم يريدون الخروج منه لأن الكلية التي فيه تحتاج إلى محله.

وأما غرف الفصول فقد رأيناها جيدة. لأنها بنيت لهذا الغرض.

ومما يذكر أن للالتحاق بهذا المعهد شروطاً معينة منها أنه لا بد من أن يكون المتقدم للالتحاق فيه حافظاً للقرآن الكريم.

وبعد إتمام الدراسة في هذا المعهد تتعاقد الرابطة مع المتخرجين

فيه وترسلهم إلى الأقطار الإفريقية المحتاجة. وكان إنشاؤه عندما لوحظ أن عدد حفظة القرآن الكريم بدأ بالتناقص. وقد شاهدت أعداداً من خريجيه وأكثرهم من الأخوة الموريتانيين في مدارس إسلامية في نيجيريا وفولتا العليا وغيرهما.

وكانت رابطة العالم الإسلامي قد فكرت في نقل هذا المعهد إلى أحد البلدان الإسلامية المجاورة، وذكرت السنغال ومالي، لكون المسئولين عن هذا المبنى الحكومي قد يخرجون المعهد منه ولكنني رأيت عدم ذلك، وأنه لا ينبغي نقله عن موريتانيا لأن عدد حفظة القرآن الكريم في موريتانيا أكثر منهم في البلدان الأخرى ولأن نقله يعتبر بادرة غير مناسبة من الرابطة، تجاه الأخوة الموريتانيين لكونه معهداً ذا صبغة خاصة.

المعهد العالي للدراسات الإسلامية:

هذا معهد حكومي زرناه للتعرف عليه؛ لأنه يقع في المبنى نفسه الذي يقع فيه المعهد القرآني كما قدمت.

استقبلنا مديره الشيخ (اسلم بن سيدي المصطفى) وهو أحد العلماء الأفاضل الذين يجمعون مثل أكثر علماء موريتانيا بين وقار العالم الديني وبين ظرف الأديب الذواقة.

وتتلخص مهمة هذا المعهد في تمرين الطلاب على البحوث العلمية الإسلامية، ولديه بعض المخطوطات التي شاهدناها إلا أنها قليلة، وينوون جمع المزيد من المخطوطات والاستفادة منها في رسائل الدراسات العليا، والأبحاث العلمية. ولا يثنيهم عن الإسراع في ذلك إلا ضعف الإمكانات المالية.

ويلتحق بالمعهد الطلاب المجيدون الذين تخرجوا في المحاضر العلمية فيدرسون فيه أربع سنوات قبل أن يتخرجوا فيه ليعملوا في سلك القضاء والتدريس.

في وزارة العدل:

كان من المقرر أن نقابل وزير العدل في مكتبه في الوزارة. إلا أننا عندما حضرنا إلى المكتب في الوزارة، أخبرنا الموظفون أنه مريض ولم يستطع الحضور إلى الوزارة، فناب عنه وكيل الوزارة في الاستقبال، كما حضره عدد من موظفي الوزارة.

وتقع الوزارة في مبنى يقل عن منزلتها لأنها وزارة للعدل والتوجيه الإسلامي، وقدموا ضيافتهم المعتادة شراب (الكوكا كولا) مضافاً إليه الحليب.

ثم السفارة السعودية:

وكانت الزيارة بعد ذلك إلى السفارة السعودية حيث اجتمعنا بالقائم بالأعمال الأستاذ سليمان الناصر الذي هو أعلى الموجودين في السفارة رتبة لأن السفير غير موجود في موريتانيا.

فبحثت بعض الأمور المتعلقة بالدعوة والشؤون العامة في هذه البلاد.

ومن هناك ذهبنا مع الأخ الشيخ (محمد فال) مدير مكتب الرابطة في موريتانيا إلى أرض كانت الحكومة الموريتانية قد منحتها لرابطة العالم الإسلامي لتقيم عليها بناء لمكتب الرابطة وللمعهد القرآني الذي

يتبعها وهي أرض جيدة واسعة في مكان مناسب قريب من مقر السفارة السعودية.

غير أن الرابطة لم تقم البناء المطلوب بسبب عدم اعتماد النفقة في ميزانيتها.

ثم مررنا بمكتب الملحق الديني في السفارة وهو تابع لرئاسة ادارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد في المملكة ويشغل بناء مستقلاً جيداً فيه مكتبة حافلة بالمراجع الإسلامية في الفنون المختلفة، ورأينا فيها طائفة من المراجعين والمطالعين.

والمبنى ذو أروقة تركبها عقود أندلسية وتبلغ أجرته الشهرية ألفين ومائتي دولار أمريكي أي أكثر قليلاً من سبعة آلاف ريال سعودي.

حفلة وزارة العدل والتوجيه الإسلامي:

أقامت وزارة العدل حفلة غداء لنا في فندقنا فندق (صباح) حضرها لفيف من كبار موظفي الوزارة وغيرهم، وأعضاء وفدنا.

وكانت مناسبة أخرى من المناسبات المفيدة، لأن الذين حضروها هم من العلماء والأدباء ومحبي الخير للإسلام والمسلمين، وكانت فرصة للاستزادة من المعلومات الهامة عن حاضر هذه البلاد ومعرفة الكثير من شؤونها. وامتد الحديث فيها إلى حين خروجنا إلى المطار.

مغادرة موريتانيا:

خرج معنا لفيف من الإخوة الكرام موظفي الحكومة الموريتانية

ومعهم الأخ الكريم (محمد ولد سيدي أحمد بلقرون) موظف المراسم الذي رافقنا في المدة كلها جزاه الله خيراً. ومستشار وزير العدل والشؤون الدينية الأستاذ (محمد مهامي) والأمين العام للوزارة (كبل عالي جالو)، ومدير التوجيه الديني (حمداً ولد تاه)، ومدير المعهد العالي للدراسات الإسلامية (أسلم بن سيدي المصطفى). والضابط (عينيا ولد أبيه) من ضباط الجيش.

كما كان القائم بأعمال السفارة وموظفوها والملحق الديني السعودي الشيخ (صالح السبيعي) والملحق الثقافي السعودي (عبد الله فلاته) والمهندسان السعوديان اللذان اشتركا في تسليم المسجد إلى الموريتانيين (عبد الله بن حمود الجنيني)، و (أحمد بن عمر العمري) معنا في المطار.

وقد حضر التوديع أيضاً مندوب الإذاعة الذي طلب الإدلاء بتصريح للإذاعة وتوجيه كلمة من إذاعة موريتانيا إلى الشعب الموريتاني في هذه المناسبة وقد أجبته إلى طلبه.

وفي الساعة الرابعة تحركت طائرة الخطوط الموريتانية قاصدة داكار، وقد آثرنا هذه المرة أن نعود بالطائرة حيث جربنا السفر بالسيارة في القدوم.

أما الطائرة فإنها صغيرة ذات محركين وتعتبر خطوطاً داخلية، لأنها تطير في داخل موريتانيا وبين عاصمتها والبلدان القريبة المجاورة.

أما الطيران العالمي فإن موريتانيا تشترك مع تسع دول أخرى في الشركة الكبيرة الناجحة (اير إفريك) وهذه الدول هي السنغال،

والنيجر، وفولتا العليا، وتشاد، والكنغو ـ الذي عاصمته برازافيل ـ وأفريقيا الوسطى، وتوقو، وبنين، وساحل العاج وموريتانيا.

وكلها من المستعمرات الفرنسية السابقة. وقد حافظت هذه الدول على بقاء هذه الشركة على كثرتها أي الدول على حين أن ثلاثاً من دول المستعمرات الإنكليزية السابقة في شرق إفريقية وهي كينيا وتنزانيا ويوغندا لم تستطع المحافظة على شركة طيران واحدة كانت مشتركة بينها. وكان اختلافها حتى في انحلال هذه الشركة وتقاسمها موضع الشماتة من الأعداء بحيث أن أحدها حجز بعض الطائرات بالقوة وأحد القطرين الآخرين صادر النقود والممتلكات الخاصة بالشركة.

ولم يكن في الطائرة اعلان عن مدة الطيران ولا أية بيانات أخرى عن الرحلة إلا أن أحد المضيفين وهما شابان من السودانيين الموريتانيين أخبرنا بأن الطيران سيكون لساعة واحدة.

وقد قدموا الشاي في الطائرة، والتفت أحد الركاب من الموريتانيين وقال للشيخ الدكوري: إن هذا الشاي من أجلكم أيها الضيوف، وإلا فليس من عادتهم تقديمه.

ومن اللطيف في الأمر أن البيان والتعريف بالأشياء الموجودة داخل الطائرة كله بالعربية تحتها الفرنسية ولكن بعضه كتب بعبارة غير مألوفة لدينا مثل (أدوات إغاثة طبية) بديلة عن كلمة (إسعاف) التي ألفنا استعمالها في بلادنا و (مطفىء النار) بدلاً من (طفاية حريق).

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
أول نخلة	٦١
صحراء حقيقية	٦٢
كله بسبب الجفاف	٦٣
نخيل الغضب	٦٤
بلاد الخيام	٦٥
بين صحرائنا وصحرائهم	٦٦
منطقة الخوارة	٦٨
في صحراء الرمال	٦٩
هجرة تجنت	٦٩
تويرجة أو العشرة	٧٢
قبل الوصول إلى نواكشوط	٧٣
تحريم الدخان	٧٤
نواكشوط	٧٥
وفي ساعة الأصيل	٧٧
شارع فيصل	٧٩
المفاجأة	٨٠
مفاجأة أخرى	٨١
الرق في موريتانيا	٨٢
بيت الشعر في الصالون	٨٤
جلسة أدبية	٨٧
إلى بوتلميت	٨٧
الخط والمعهد العالي	٨٩

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة